

الرسالة

5 me Année, No. 231 | Lundi 6-12-1937

بدل الاشتراك عن سنة
ص
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة
مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

العــدد ٢٣١ « القاهرة فى يوم الاثنين ٣ شوال سنة ١٣٥٦ — ٦ ديسمبر سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

الفهــرس

ثورة على الأخلاق

شقشقة هدرت ثم قرت

أخى عزام

قرأت مقالك البليغ فى عدد الرسالة السابق ، وكان محمود خصمك حاضراً فكفانى ما كلفتنى من إبلاغه . وهو فى هذه الساعة لين الحاشية ، لأنه قام منذ هنيهة عن مائدة الإفطار الغنية الشهية ، ممتلئ البطن من خير الله ، رطيب اللسان بحمد الله ، لا يذكر أن فى العالم ضيق رزق ، ولا أن فى الناس سوء خلق . ولذلك قال حين ذكّرته برأيه وخبّرته برأيك ما قال الإمام على رضى الله عنه : تلك شقشقة هدرت ثم قرت ! فكانت حاله التى حالت بين الأمس واليوم دليلاً جديداً لعلماء الاجتماع الذين يردون ثورات الشعوب المختلفة إلى العوامل الاقتصادية المحض من الحرمان والجوع . والواقع الذى لا يرفعه زخرف القول أن الناس يدورون بعواطفهم وأخلاقهم حول مادة العيش ، فإن أُعطوا منها رضوا ، وإن لم يُعطَوا منها إذا هم يسخطون

على أن مجلسنا كان حافلاً بغير محمود من رجال العلم والدين والأدب وكلهم كانوا له وعليك . وليس ذهابهم إلى رأى خصيمك

انصرافاً عما قررت من حميد الأثر لأخلاقنا المقدسة فى ألفة الناس وسعادة النفس ، فإن ذلك موضع اتفاق لا يشذ عنه إلا ميت الضمير أو مريض العقل . إنما كان موضع الجدل أن الأخلاق الفاضلة لا تصلح أن تكون عدة النجاح إن لم تكن عدة الفشل . والنجاح فى جهاد العيش لا يدل على تمام معناه إذا قصدنا به الكفاف من ميسور الرزق ، يصيبه الصالح والطالح ، ويقنصه البازى والرخم . فإذا ضربت له مثلاً نجاح الصانع الصادق والتاجر الأمين والمزارع الوفى والعامل القانع ، كانوا أحرياء أن يتهكموا بقداسة هذه الأخلاق إذا كان قصارى أمرها هذا النجاح الحقير وهى الدستور الأعلى لبلوغ السموات وامتلاك الأرض . فإن هؤلاء الطيبين الأخيار الذين وصفتهم بالقناعة وخصصتهم بالرضى لن يستطيعوا أن يكونوا يوماً من رجال المال والأعمال كصيدناوى والبدراوي وعبود . أما حين تقصد النجاح بمعناه الأتم فإنهم يرونك تنزع إلى مقالة محمود وتعلل بمنطقك السليم فشل التقى الأبى الحر بأنه (لا يرى إلى الجاه والمال إلا طريقاً واحدة هي الطريق التى يسنها الحق والشرف والأباء والمروءة ، وأن أمام الفساق والأذلاء والأدنياء طرقاً شتى من التلصص والكذب والتزوير والخداع والملق والذلة والشره والظلم والقسوة والأثرة وهلم جرا ، وأن من الأحرار من يخفق في عمله حين يلزم نفسه هذه الطريق الواحدة ، ويقسرها على هذه المحجة الواضحة ، وأن من العبيد عبيد المطامع والأهواء ومرضى النفوس والأخلاق من يظفرون فى هذه السبل بما يريدون ، ويبلغون الغاية التى يقصدون)[1] وما دام جوهر الرأي واحداً فالسبيل القاصدة إذن أن نطبَّ لهذه الحال بما يوائم بين طموح الناس وكرامة الأخلاق وسلامة المجتمع . وليس هناك إلا وسيلة من وسيلتين : إما أن نصد الناس جميعاً عن هذه الطرق المتعددة ، ونقصرهم على هذه الطريق الواحدة ، بقوة الأديان والسلطان والتربية ، وذلك ما عناه الرسول (ص) بقوله : « عليكم بالجادَّة ودعوا البُنَيَّات[2] » ؛ وإما أن نعيد النظر فى قانون الأخلاق فلعل فيه ما لا يرافئ تقلب العصر وتطور المجتمع . فأما الوسيلة الأولى فقد سجل الماضى ودلل الحاضر على أنها خيال نبيل لا يقع فى الإمكان ، وحلم جميل لا تقوم عليه يقظة . وتعليل ذلك لا يعزب عنك فلا حاجة إلى تقريره . وأما الوسيلة الأخرى فهى على ما يرون مظنة التوفيق فى الإصلاح الجديد

ما معنى أن يظل التواضع والقناعة والزهد والمداراة والتوكل على إطلاقها فضائل وأنت ترى بعين الواقع أن المتواضع موضوع والقانع مهمَل والزاهد محروم والمدارى مستذَل والمتوكل عاجز ؟ أليس صلف الانجليزى أبلغ فى العزة ، وطمع الفرنسى أليق بالحياة ، وطموح الايطالي أخلق بالرجولة ، وصراحة الألماني أدعى إلى الهيبة ، واستقلال الأمريكى أضمن للفوز ؟ ما معنى أن يظل الربا فى عصر الاقتصاد رذيلة وقد اختلف اليوم فى معناه ومرماه عن ربا (شيلوك) وأنت تعلم أن الغرب لم يستعبد الشرق إلا عن طريق بنوكه . فقد كانت تأخذ القناطير المقنطرة من أموال المسلمين بغير ربا لتقرضها إخوانهم المساكين بالربا الفاحش . ولو أنهم أخذوا رباها وأنفقوه فى وجوه الإصلاح والبر لما بقى على أرضهم أجنبى ، ولما ظل تحت سمائهم فقير . ولا أريد أن أعرض لغير الربا من الرذائل فلا نزال فى حاجة إلى التقية والمصانعة . وإذا سلمنا أن مقياس الفضائل والرذائل هو النفع والضرر ، فما كان مؤدياً إلى منفعة سمى فضيلة ، وما كان مؤدياً إلى مضرة سمى رذيلة ، سهل قياس الأخلاق على هذا الأساس ، وأمكن بعد ذلك الاتفاق على نتيجة هذا القياس

* * *

ذلك يا عزام قولهم بأفواههم يريدون أن يصل إليك عن طريق الرسالة . أما محمود فقد ظل صامتاً طول الحديث كأنه ليس منه فى قال ولا فى قيل . ولا أدرى إذا ما خلا جوفه من طعام رمضان الدسم المرئ أيعود إلى جدالك ، أم يكتفى بتعليق أصحابه على مقالك . وأما أنا فلا أزال أهيب بدهاقنة الدين وفلاسفة الأخلاق أن تتدخل جماعتهم فى سوق الفضائل معدِّلة أو هادية ، كما تتدخل الحكومة فى سوق الأقطان مشترية أو حامية

احمد حسن الزيات

(١) من مقال الأستاذ فى العدد الماضى

(٢) الجادة وسط الطريق والبنيات ، الطرق الصغار التى تتشعب من الجادة

بين القاهرة واستنبول

للدكتور عبد الوهاب عزام

— ٢ —

من دمشق إلى القسطنطينية

يا صديقي الزيات:

لعل رسالتي التي حدثتك فيها بطرف من أحاديث دمشق قد بلغتك، وهذه رسالة أخرى أطرفك فيها ببعض ماوعت النفس من مشاهد الطريق بين دمشق والقسطنطينية. وأرجو أن أواصل الرسائل من بعد:

ترددت برهة كيف آخذ طريقي من دار الأمويين إلى دار البيزنطيين. أأركب إليها البحر من بيروت وأرجع من طريق البر، أم أخترق اليبس إلى غايتي؟ وكنت ركبت السفينة بين الاسكندرية والقسطنطينية مرتين قبلاً، فقلت لنفسي: ماذا تفيدين من رؤية ما رأيت، وحافظ الشيرازي يقول:

من جرّب المجرّب   حلت به الندامة

وماذا تُجدى عليك رؤية الدأماء صباح مساء؟ لجة واحدة وأمواج متشابهة، كأنها ساعات الزمان في بحر العمر!

صح العزم على سفر البر، فخرجت من دمشق بعد ظهر الثلاثاء ١٩ جمادى الأولى (٢٧ تموز) في سيارة أعدتها شركة السكك الحديدية لإبلاغ المسافرين حمص ليركبوا منها سكة الحديد إلى حلب. وقد ابتليت برفقة ليس بيني وبينهم سبب فأرحت لساني وأذني، وسرّحت طرفي في الفضاء، وفكري في مسارح لا تحد بين الماضي والحاضر، والقريب والبعيد. وكان للسيارة سوّاق ذكرنا بقول القائل: «قد لفّها الليل بسوّاق حُطم» فانطلق بنا لا يألو إسراعاً حتى يكاد الماء في جوف السيارة يشتعل، فيقف ريثما يفثأ الماء، والطريق أكثرها صحراء جرداء تسايرها جبال وتلال، وتزينها بين الحين والحين قرى ومدن ومشاجر ومياه، ولا سيما قرب حمص. ولم نقف على الطريق إلا في النبك لبثنا به قليلا

هذه حمص بعد سبع سنين ولات حين تلبث. إن الوقت لا يمهلك حتى لزيارة خالد بن الوليد فاصبر حتى تعود أدراجك من هذه الطريق فتقضي حق العين والفؤاد من هذه المشاهد.

بعد قليل جاءت من طرابلس عربة كعربة ديزل المعروفة في مصر، وتسمى في الشام باسمها الفرنسي «أوتومُتريس» أخذت مكاني بها وانطلقت سريعة تطوى ما بين حمص وحلب، والطريق هنا أكثر ماء وشجراً وزرعاً. وفي الطريق لاحت حماة في زينات من شجرها ومائها، ونغمات نواعيرها منثورة في السهل تدور بالماء والماء بها يدور لا تفتر نهاراً ولا ليلا وتذكرت قول القائل:

ناعورة مذعورة   للبين حيرى سائرة

الماء فوق كتفها   وهي عليه دائرة

وتذكرت أني حين قرأت هذين البيتين في المدرسة ظننت الناعورة هي الساقية بلسان أهل مصر، ثم عرفت فرق ما بينهما حين ذهبت إلى الشام أول مرة. ومن رأى نواعير الفيوم فقد رأى صورة صغيرة من نواعير الشام الماثلة في الفضاء على نهر العاصي عالية رائعة

وبلغنا حلب بعد الساعة الثامنة من المساء فقصدت إلى فندق البارون. اضطرني إليه، على نفرتي من هذه الأسماء الأفرنجية في البلاد العربية، أني أُنْزِلت به مرة، ولم أعرف من فنادق حلب غيره. وقضيت به بقية الليل. وأصبحت مبكراً إلى القطار قطار الشرق السريع. لم أر في حلب شيئاً ولم ألاق بها صديقاً. وسأعود إلى حديث حلب وحمص في رجوعي إلى الشام إن شاء الله

وجاء القطار الفخم قد كتب عليه بالفرنسية والتركية ذات الحروف اللاتينية: «قطار الشرق السريع» وسألت أحد عمال القطار عن عربات النوم فقال لصاحب له بالتركية: «دلّه عليها» فقلت: هذا أول العُجمة وطلائع الغربة

أخذت مكاني بالقطار موطّناً النفس على السفر ستاً وثلاثين ساعة، ورفيقي فكري وخيالي وديوان البحتري. سار القطار والساعة سبع من الصباح، وكان شريكي في المقصورة انكليزياً ذاهباً من العراق إلى بلده في إجازة قصيرة، ولكني وجدت عن ملازمته ميلاً ومندوحة في مقصورة أخرى خالية خلوت فيها بصاحبي البحتري. وسأحدث القارئ حديثه بعدُ؛ على أني لم أذم من الانكليزي الشيخ صحبة، وكنت ألقاه حيناً فحيناً فنتحدث ونتفكه، وكنت أجده جالساً وبجانبه عدة السفر من البيبة والسجاير والكتب. ولست أنسى رثائي له حينما أضلّ منظاره فاضطرب حيناً يبحث عنه، ثم جلس كئيباً يقول: إني لا أستطيع القراءة بدونه. وكيف أقطع الطريق إلى لندرة بغير قراءة؟ إنه منظار ثمين، إنه يلائم عينيّ؛ ثم يهيج فيتهم خادم القطار بالسرقة؛ وييأس، فأعيدُ الأمل في نفسه، فيعود يبحث عنها

وأبحث معه . وجاء الخادم يقول : لعلها فى حقيبتك . ففتح الحقيبة مغضباً وأخرج ما فيها من ورق وقال للخادم بالانكليزية — وهو عالم أنه لا يعرف منها كلمة — : أنظر ! أتجدها هنا ؟ أأنت على يقين أنها ليست هنا ؟ أمطمئن أنت إلى أنها ليست هنا ؟ ثم رجعت إليه بعد حين فإذا هو متهلل الوجه مسرور ، فلما رآنى وثب يرينى كيف انزلق منظاره وراء الباب وكيف وجده ، فشاركته السرور وأعدنا الحديث عنه ضاحكين بعد أن أطلنا الحديث عنه آسفين ...

وبعد ساعتين من حلب دخلنا إقليماً جبلياً مشجراً تخلل القطار فيه أنفاقاً كثيرة متعاقبة على سفوح الجبال حتى بلغنا ميدان أقبس على الحدود بين سورية وتركية ، والساعة تسع وخمسون دقيقة ، فوقف القطار زهاء نصف ساعة . وجاء موظف تركى فسأل : من أين ؟ قلت : من مصر . قال : إلى أين ؟ قلت : استانبول . قال : أمعك أشياء للجمرك ؟ قلت : لا . قال : كم معك من النقود التركية ؟ قلت : قليل لا يتجاوز كذا . قال : مع السلامة

وبلغنا ، والساعة ثلاث ونصف ، محطة اسمها مصيص . قلت لنفسى : هذه ولا ريب المصيصة التى كانت ثغراً بين البلاد الاسلامية وبلاد الروم زمناً طويلاً . هنا نهر جيحان ، وهنا مغازى سيف الدولة ؛ وفى هذا الإقليم وما يجاوره نظم المتنبى ما نظم من قصائده . أليس يقول أبو الطيب لسيف الدولة :

سريت إلى جيحان من أرض آمد
ثلاثاً لقــد أدناك ركض وأبعدا

ومن قبل قال عدىّ بن الرقاع العاملى :

فقلت لها كيف اهتديت ودوننا دُلوك وأشراف الجبال القواهر
وجيحــانُ جيحانُ الملوك وآلس
وحَزن خزازى والشعوب القواسر

أجل وهنا أطراف العواصم التى يفيض بذكرها التاريخ والشعر .

وسرنا بعد المصيصة ثلاثين كيلا شطر الغرب فاتسع السهل وانتشرت الخضراء ووافينا أطنة والساعة أربع . ندع حديث أطنة وما يليها إلى العودة ، ونسير إلى الشمال زهاء ساعة فنوافى جبال طوروس ، وما أعظمها منظراً جيلاً رائعاً هائلا : سفوح مخضرة يصعّد فيها الطرف حتى يبلغ قمما شاهقة تكاد العين تقصر دونها ، قمم متنافسة متسامية إذا صعد البصر إلى إحداها انزلق على السفح ليرقى فى سفح آخر إلى قمة أخرى ، وإذا أسفّ النظر إلى الحضيض فهناك الأودية العميقة السحيقة يهول الناظر عمقها وبروقه بين الحين والحين مياه تجرى مسرعة مزبدة متعرجة كأنها الأراقم راعها القطار فانسابت إلى مجاحرها . وتتوالى مرائى طوروس فى جمالها وجلالها واختلاف ألوانها وارتفاعها واستفالها وما يشغل العين والفكر من صورها ، والقطار على السفح موف على هذه الأودية الهائلة يصعد متمهلا وينبهر أحياناً فيقف زاحراً زافراً لا يقوى على المرتقى . فاذا أعد العدة من مائه وناره وبخاره عزم فصعد جاهداً مجهودا . وبعد نصف ساعة على هذه السفوح تعاقبت أنفاق لبث القطار فيها نحو عشرين دقيقة كلما بشر الضوء بانتهاء أحدها أقبل الآخر فى ظلامه يلتهم القطار

ومن بدائع الجناس أو المقابلة فى هذا الجمال البديع أذواد من الإبل فى أودية طوروس ، لم تذهب بجمالها ورواثها مناظر الجبال العظيمة ؛ وأما سرب المعزى الذى رأيته هناك فلا أدرى من أى أنواع البديع مرآه هناك

وتوالت ذِكَرُ الآل والأصحاب فإذا لسانى يترنم بهذه الأبيات :

ذكرتك إذ طوروس فى اللُّوح مُصعِد
يظلّ بأهــداب السحاب يُعمَّم
يطير بىَ الاعجاب بين سفوحه وقمّاته والقلب فيـه مقسَّم
ويفزع من وديانه كل ناظر ويحتار فيه الطرف كيف يسّم
جمال تَرود العين بين رياضه عليـه جلال بالمهابة مفعم
فأيقنت أنْ ذكراك أروع مشهداً
وأجمل من طوروس عندى وأعظم

وانتهى بنا الإصعاد إلى مكان اسمه أولوقشله وهو أعلى موضع فى طريق طوروس ؛ وبعده بقليل تلتقى الطريقان : الطريق الآتية من أنقرة ، والآتية من قونية

وجن الليل وبات القطار يسرى فأصبحنا عند أنقرة والسلعة سبع من الصباح : وأستأذنك يا صديقى أن أطوى المسافة بين أنقرة واستنبول والحديث عنها إلى العودة فقد كان نصيبى من هذه الديار فى عودتى أوفر ، وأنسى بها أطول ، ثم أخشى أن تمل الحديث الطويل والرسالة المسهبة . فسلام عليك إلى أن أكتب إليك

استنبول ٣٠ تموز عبد الوهاب عزام

في التاريخ السياسي

مصر وإيطاليا

عبر الماضي دلائل الحاضر

بقلم باحث دبلوماسي كبير

لما كشفت إيطاليا الفاشستية فى أوائل سنة ١٩٣٥ عن نياتها الاستعمارية نحو الحبشة توجس أولئك الذين يشفقون على حرياتهم وحريات الشعوب الآمنة شرا ، واستشعروا الخطر الاستعمارى جاثماً وراء تأكيدات رومة بأنها لا تبغي من وراء أهباتها العسكرية سوى الدفاع عن أملاكها الأفريقية . ولم تمض أشهر قلائل حتى صدق الظن ووثبت إيطاليا بالحبشة وثبتها المعروفة ، واستشهدت ضحية جديدة من ضحايا الاستعمار

وكان لهذه المأساة الاستعمارية في مصر وقع خاص ؛ ولم يكن ذلك فقط لأن مصر ترتبط مع الحبشة بروابط تاريخية قديمة ، ولها فى الحبشة نفوذ دينى خاص بواسطة كنيستها القبطية ، ومنابع نيلها تقع فى الحبشة ، ولكن لأن مصر شعرت على الأخص بأن خطراً استعمارياً جديداً قد استقر على مقربة منها ومن سودانها ونيلها ، وأن الفاشستية الطموحة المتوثبة قد أصبحت تطوق وادى النيل من ناحيتيه ، وأن استشهاد الحبشة على هذه الصورة المروعة إنما هو عبرة يجب أن يكون لها بالغ الأثر

وقد كانت المعاهدة المصرية الانكليزية التى عقدت فى ٢٦ أغسطس سنة ١٩٣٦ نتيجة محتومة لهذه المأساة ؛ ولم يكن فى وسع مصر وبريطانيا العظمى أن يتجاهلا أهمية ذلك التطور الخطير فى أحوال وادى النيل ؛ ولم يكن فى وسعهما أن يمضيا بعد فى نزاع طال أمده ، وأن يغفلا بذلك عن الخطر الذي تواجهانه معاً ؛ ومن ثم كان عقد المعاهدة المصرية الانكليزية عملا حكيما من الجانبين ، وكانت ضرورة أملتها الظروف والحوادث

والآن تبدو أهمية التحالف بين مصر وبريطانيا العظمى ؛ فتطور الحوادث فى البحر الأبيض المتوسط ، وحالة التوتر التى تسود علائق الدول الفاشستية والدول الديمقراطية ، والكدر الذى يشوب علائق إيطاليا وبريطانيا ، وما تبديه الفاشستية الايطالية من بوادر التحفز والطموح ، وما تقوم به من الأهبات العسكرية فى جزيرة بانتلاريا الواقعة بين تونس وصقلية ، وفي جزيرة رودس ، وما تحشده من القوات الجرارة فى طرابلس على مقربة من الحدود المصرية : كل أولئك يجب أن يلفت الأنظار ، ويثير الريب ، ويقضى على أولئك الذين تعنيهم هذه الحالة أكثر من سواهم بالتيقظ والحذر والاستعداد

* * *

ولا ريب أن مصر فى مقدمة الدول التى يجب أن تعنى بهذه التطورات ؛ بل هنالك ما يدل على أنها ليست بعيدة عنها ، وأنها لا تستطيع أن تطمئن إليها ؛ وليس ذلك فقط لأن الحوادث قد جمعت بين مصر وبريطانيا العظمى ، ووثقت بينهما فى جبهة صداقة وتحالف دائمين ، ولأن الفاشستية الايطالية فى خصومتها لبريطانيا العظمى لا بد أن تقصد إلى خصومة مصر فى نفس الوقت باعتبارها حارسة لشريان من أهم شرايين الأمبراطورية البريطانية : نقول ليس ذلك فقط ، بل كذلك لأن الفاشستية الايطالية ليست بعيدة عن التفكير فى مصر لذاتها

إن الفاشستية الايطالية تضطرم اليوم بأعظم الأحلام الأمبراطورية ، وترتد ببصرها إلى الأمبراطورية الرومانية ؛ وليست مصر فى نظرها إلا كطرابلس ولاية رومانية سابقة . وما زلنا نذكر إشارة السنيور موسوليني فى إحدي خطبه أيام الحرب الحبشية إلى مصر وقوله إنها كانت أهراء الغلال لرومة ، والفاشستية ترنو فى حلمها الإمبراطورى إلى مصر ، ولا سيما بعد استيلائها على الحبشة . وقد دلت على ذلك فى مواطن عديدة ومناسبات كثيرة وهى تحاول منذ أعوام أن تقوى نفوذها ودعايتها فى مصر بمختلف الوسائل ؛ وسواء أكانت الفاشستية ترنو إلى مصر من خلال خصومتها لانكلترا ، أو كانت تقصد إليها بالذات كحلم استعمارى رائع يمكن تحقيقه ، فان الذى لا ريب فيه هو أن مصر تواجه اليوم مرحلة من أدق مراحل تاريخها

ولقد توالت من خلال هذا القلق الشامل تصريحات المقامات المسئولة فى رومة بأن إيطاليا الفاشستية لا تضمر شراً لمصر ولا يمكن أن تفكر فى الاعتداء عليها ، وأنها بالعكس تشعر نحوها بأكرم عواطف الصداقة والود ؛ وأما الجيوش الجرارة التى تحشد

فى برقة ، وأما الأهبات العسكرية الهائلة التي تتخذ هنالك على مقربة من الحدود المصرية ، فليست سوى إجراءات تحفظية تقرر اتخاذها منذ بعيد . هكذا نسمع من رومة بين حين وآخر ، وهكذا أكد لنا السنيور موسوليني نفسه فى حديث أفضى به منذ أسابيع قلائل ، وهكذا يؤكد ممثل إيطاليا فى مصر للحكومة المصرية كلما أبدت دهشتها وتساؤلها من سير الأحوال فى برقة

بل هنالك ماهو أكثر من ذلك ، وهو أن الحكومة الإيطالية عرضت أكثر من مرة ، وما زالت تعرض بواسطة ممثلها فى مصر على الحكومة المصرية أن تعقد معها ميثاق صداقة وعدم اعتداء . ويقال إنها تقدمت إلى الحكومة المصرية بمثل هذا العرض حتى قبل أن تعقد المعاهدة المصرية الانكليزية

ومصر تغتبط بلا ريب بمثل هذه التأكيدات الودية من جانب حكومة رومة ، وتود لو أنها تستطيع أن تؤمن بها وتطمئن إليها

ولكن مصر لا تستطيع أن تؤمن ولا أن تطمئن ؛ ولها فى ذلك أكبر العذر ؛ فالتاريخ يعيد نفسه دائماً ، وشواهد الماضى قرائن الحاضر ؛ ولإيطاليا الحديثة فى نقض المواثيق والعهود تاريخ متصل لم تنقطع حلقاته حتى اليوم ؛ وهو يدل دلالة واضحة على أنه إذا كانت إيطاليا الحديثة الناشئة قد آثرت مدى نصف قرن أن تجرى على سياسة انتهاز الفرص ونقض العهود ، فإن إيطاليا الفاشستية التى تجيش بمختلف المطامع والأمانى لا يمكن أن تكون أحفظ للعهد وأجدر بالثقة والاطمئنان

وإليك منطق التاريخ الحاسم : لم تكد إيطاليا الفتية تستكمل وحدتها واستقلالها فى أواخر القرن الماضى حتى أخذت تساورها نزعة الاستعمار والتوسع ، وتلتمس لتحقيقها جميع الخطط والوسائل ؛ وكانت تتردد يومئذ بين فرنسا وألمانيا لترى أى الناحيتين أكفل للغنم ؛ وكان وزيرها الشهير كرسبي رجل المطامع والمغامرات ، بل يمكن أن يقال إنه هو الذي وضع أسس سياسة التوسع التى تنزل إيطاليا إلى ميدانها اليوم . فلما احتلت فرنسا تونس فى سنة ١٨٨٠ اضطرمت إيطاليا سخطاً لأنها كانت تطمع فى احتلالها ؛ وتحول كرسبي إلى ألمانيا خصيمة فرنسا يخطب ودها ، وانتهى الأمر بدخول إيطاليا فى المحالفة الثنائية الألمانية النمسوية التى غدت المحالفة الثلاثية من ذلك الحين (سنة ١٨٨٢) ثم تجددت فى سنة ١٨٨٧ ؛ ولبثت قائمة حتى نشوب الحرب الكبرى

ولكن ما الذي حدث عند نشوب الحرب الكبرى ؟ التمست إيطاليا الوسيلة لنقض عهود تحالفها مع الدول الوسطى والتزام الحيدة أولا ، ولم يمض عام حتى انقلبت إلى الحلفاء . ثم انضمت إليهم وأعلنت الحرب على حليفتيها القديمتين لتشترك مع الحلفاء فى تحطيم الامبراطورية النمسوية والاستيلاء على نصيبها من أسلابها

وحصلت إيطاليا على نصيبها من أسلاب الدول المهزومة ؛ وكانت أوفر الحلفاء حظًّا في أوربا لأنها فضلاً عن الفوز بتحطيم الامبراطورية النمسوية جارتها القوية وخصيمتها القديمة ، استولت على التيرول الجنوبي واستيريا ودلماتيا ، وكفلت بذلك حدوداً منيعة فى الشمال والشرق

ثم قامت الفاشستية الايطالية ولم يرضها ما حصلت عليه إيطاليا من أسلاب الحرب ، بل اعتبرته غبناً لها وانتقاصاً لحقوقها فشهرت سياستها المعروفة فى سبيل التوسع الاستعمارى ، وعززتها بالتسلح والأهبات العسكرية العظيمة ، وأخذت تترقب الفرص لتحقيق مشاريعها وأمانيها

وكانت إيطاليا قد عقدت منذ سنة ١٩٠٦ معاهدة ثلاثية مع بريطانيا العظمى وفرنسا تقضى بالعمل المشترك بينها لحماية أراضيها ومصالحها فى شرق أفريقية ، وتنص على وحدة الحبشة واستقلالها مع التنويه بمصالح إيطاليا فى الحبشة ؛ وجددت هذه المعاهدة فى سنة ١٩٢٥ . وفى سنة ١٩٢٨ عقدت إيطاليا مع الحبشة معاهدة صداقة وتحكيم ، وجددت عهودها للحبشة باحترام استقلالها ووحدتها ، وكانت إيطاليا من أشد المؤيدين لدخول الحبشة عصبة الأمم

ولكن الفاشستية الإيطالية كانت فى الوقت الذى تقطع فيه على نفسها هذه العهود والمواثيق تتحين الفرص ، وتدبر اعتداءها سراً على الحبشة ، حتى إذا سنحت الفرصة نفذت مشروعها الاستعمارى على مرأى ومسمع من العالم ، ولم تبال بمواثيق أو عهود ، وسخرت من كل اعتراض أو احتجاج ، وتم لها ما أرادت من القضاء على حريات أمة آمنة مستقلة

ولما اضطرمت الحرب الأهلية الأسبانية ظهرت إيطاليا الفاشستية من وراء الثوار تشد أزرهم وتذكى أوار الحرب بجنودها وسلاحها، وما زالت تمضى فى سياستها حتى اليوم تنفيذاً لمآرب ومشاريع استعمارية تبغى اجتناءها . ولما نظمت اليابان اعتداءها الأخير على الصين بادرت إيطاليا بإظهار عطفها وتأييدها لليابان المعتدية لأنها تسير فى نفس السياسة الاستعمارية التى تسير عليها

هذا هو ماضى إيطاليا، وهذا هو حاضر الفاشستية الايطالية فى نقض العهود والمواثيق وتمزيق المجتمعات، وفى ترقب الفرص غير المشروعة وتنظيم الاعتداءات الاستعمارية

والواقع أن الفاشستية الإيطالية لا تنكر جنوحها إلى هذه الخطط، فهى تنادى علناً بأن الحق للقوة وحدها، وتسخر من كل عهد أو ميثاق أو حق لا تؤيده القوة، وهى تجرى على سياسة مكيافيلية خالصة تبرر لتحقيق الغاية كل الوسائل

فكيف تستطيع مصر بعد ذلك كله أن تثق بتأكيدات رومة الودية وتطمئن إليها؟ إن التاريخ يعيد نفسه دائماً، ومصر ترجو ألا تكون ميداناً للوثبة القادمة

ومصر لا يمكن أن تطمئن إلا لنفسها ومقدرتها على الدفاع عن كيانها، وهى تشعر شعوراً صادقاً بالخطر الذى يلوح لها فى الأفق؛ ولكن مصر تثق أيضاً فى مستقبلها وطالعها، وتعتزم ألا تسمح لأحد بالاعتداء عليها . ومن حسن الطالع أنها تستطيع أن تعتمد فى مثل هذا الظرف على معاونة صديقتها وحليفتها العظيمة بريطانيا العظمى . ومن حسن الطالع أن مصلحة مصر ومصلحة بريطانيا تتفقان هنا وتمتزجان؛ فالاعتـداء على مصر يكون فى نفس الوقت اعتداء على ما تعتبره بريطانيا مركزاً حيوياً لمواصلاتها الإمبراطورية

على أن مصر يجب أن تعمل منذ الآن للاعتماد على نفسها قبل كل شىء، فنحن فى عصر القوة لا فى عصر الحق، ويجب أن تتذرع الأمم للذود عن حرياتها وكيانها بكل ما تدخر من القوى المادية والمعنوية؛ وهذا ما ستفعله مصر بلا ريب

ثم إننا نؤمن من جهة أخرى بأن هذه النظم الطاغية والخطط الاستعمارية الباغية التى تصول اليوم فى ميدان القوة والعـدوان سوف تنهار متى وقع الاصطدام الحقيقى؛ هذا إذا لم تسارع قبل ذلك إلى تمزيق نفسها بنفسها (***)

مســـكين
بين إنجليزى ولبوته
أثر العادة والتدريب فى الإنسان والحيوان

كنت قد أبصرت في بعض الصحف صورة شبل مع إنجليزي وطلَّتُه (1) أو لَبْوَتِه (2) ... وهما يشربان الشاي (أو الشاهى كما يقولون فى الحجاز) والثلاثة: الرجل والرَّجلة وابن الليث يتناظرون (3) صامتين . وفى الصحيفة حديث عن أنس الوحش، فلم أتعجب إذ رأيت هذا المسكين (أعني الشبل) يقاعد إنجليزيا، ولم أنكر، ولم أقل: إن ذلك البريطاني قد تطبع بطبع الأسد الوحشى حتى ائتلفا واصطحبا لأن الانجليزى إنسان من الاناسية والناس لا يحتاجون كما يعرف العارفون إلى تدرب على طبيعة من طبـائع الضوارى والكواسر أو الجوارح (4)، فالقرابات كما حققت علوم كثيرة فى هــذا الزمان بين منتصبى القامات اليوم وبين (5) الماشيات على أربع والطـائرات والزحافات واشجات قريبات؛ ووراثة الأجداد البعيدة (بل القريبة) وهي التى يقال لهـا فى اللسان الأفرنجى L' atavisme ما زايلتهم فى حين، وما ضاع والحمد لله ... منها شىء؛ وفى كل يوم ألوف ألوف من الأدلة المثبتة المسكتة، المخجلة المخزية . وابْلُ من شئت ممن تفخمهم تفخيماً وتبجلهم تبجيلاً وتحسبهم — وهم من البشر — ملائكة، فإنه «يكاد أفضلهم رأياً يردّه عن فضل رأيه الرضا والسخط، ويكاد أصلبهم عوداً تنكأه اللحظة،

(1) طلة الرجل: امرأته، قال:

وإنى لمحتاج إلى موت طلتى ولكن قرين السوء باق معمر

(2) اللبوة ساكنة الباء غير مهموزة: لغة فى اللبؤة بضم الباء وبالهمزة

(3) يتناظرون: ينظر بعضهم بعضاً لا إنهم كانوا يتناظرون ويتباحثون فى كتابى (أصل الأنواع) لداروين و (تاريخ الخلق الطبيعى) لأرنست هيكل

(4) (الضارى) من السباع ماضرى بالصيد ولهج بالفرائس (باز كاسر) وعقاب كاسر، كسر الطائر ضم جناحه حتى ينقض يريد الوقوع (الجوارح) ذوات الصيد من السباع والطير

(5) بين تكرر مع المظهر لا كما قال الحريرى فى (الدرة) وغيره والتكرير فى أقوال العرب كثير

وتستحيله الكلمة الواحدة (١) »

« والناس شجرة بَغْيٍ (٢) »

« وجدت الناس إن قارضتهم قارضوك ، وإن تركتهم لم يتركوك ، وإن هربت منهم أدركوك (٣) »

« وجدت الناس أخبُرْ تَقْلِه (٤) » :

يلقاك بالماء النمير الفتى وفى ضمير النفس نار تقِدْ (٥)
يعطيك لفظاً ليّناً مسُّه ومثل حدّ السيف ما يعتقدْ

فالناس هم الناس ، و« هم — كما قال عالم أفرنجي — لم يزالوا حتى اليوم فى الأفق (الدور) القردى الشبنزى أو الشنبنزي » إنهم بعدُ لفى هذا الأفق وإن مشوا فى الأرض متغطرسين متكابرين متبجحين على إخوانهم الأقربين (ذوات الأذيال ...) بما سمّته لغاتهم تقدماً وارتقاء وإن أسمعك بعضهم — وأنت فى القاهرة مقيماً — صوت الحبيبة فى (نيويورك) وأراك صورة من تهوى فى بلاد (النمسة) :

من فى العراق يراك فى طرسوسا (٦)

فالناس هم الناس :

فلا تلزمن الناس غير طباعهم
فتتعب من طول العتاب ويتعبوا (٧)

أعود إلى أول كلامي فأقول : لا ، لا ، لم أقل : إن ذلك الانجليزي قد تخلق بنحيزة ضارٍ فألف كلٌّ صاحبَه ؛ فالانسان — كما أثبت علم العلماء وأثبت عمله هو — سبعى بالطبع ، بل ازددت بعد تلاوة ذلك الحديث إيقاناً بأثر العادة والتعويد ، وإيماناً بأن التدريب يقدر أن يذلل الضارى ويقتاده — كان الله فى عونه — إلى ملابسة انجليزى (أو غير انجليزى) ولا شىء فى الدنيا أصعب من مخالطة الناس

* * *

وفى العربية أقوال كثيرة فى العادة والمرون والتضرية والتدريب والتألف . وهذا خبر حسن بارع مجزئٌ عن كثير فى هذا المعنى ، وهو فى الشرح الكبير (للنهج) لابن أبى الحديد :

« إن لم تكن حليماً فتحلم ، فانه قل من تشبه بقوم إلا أوشك أن يكون منهم) صحيحٌ فى مناهج الحكمة ؛ لأن من تشبه بقوم وتكلف التخلق بأخلاقهم ، والتأدب بآدابهم ، واستمر على ذلك ومرن عليه الزمان الطويل ، اكتسب رياضة قوية وملكة تامة وصار ذلك التكلف كالطبع له ، وانتقل عن الخلق الأول . ألا ترى أن الأعرابى الجلف الجافى إذا دخل المدن والقرى وخالط أهلها ، وطال مكثه فيهم انتقل عن خلق الأعراب الذى نشأ عليه وتلطف طبعه ، وصار شبيهاً بساكنى المدن ، وكالأجنبى عن الوبر . وهذا قد وجدناه فى حيوانات أخرى غير البشر كالبازى والصقر والفهد التى تراض حتى تذل وتأنس ، وتترك طبعها القديم ، بل قد شاهدناه فى الأسد وهو أبعد الحيوان من الانس . وذكر ابن الصابى (أبو إسحق) أن عضد الدولة بن بويه كانت له أسود يصطاد بها الصيد فتمسكه عليه حتى يدركه فيذكيه (١) ، وهذا من العجائب الطريفة »

(*)

(١) يذكيه : يذبحه ، والذكى المذبوح ، فى (الكشاف) : إلا ما ذكيتم : إلا ما أدركتم ذكاته (ذبحه) وهو يضطرب اضطراب المذبوح وتشخب أوداجه

(١) من كلام النهج . (تستحيله) يريد تحيله ، ولم أجد استحال متعدياً فى كلام عربى يوثق به ، ولا فى كتب اللغة المعروفة

(٢) إنما جعلهم شجرة البغى إشارة إلى أنهم ينبتون وينمون عليه (الميدانى) والقول مثل

(٣) أى إن نلت من أعراضهم نالوا من عرضك ، وإن تركتهم فلم تنل منهم نالوا منك أيضاً لسوء دخلتهم ، وخبث طباعهم (الميدانى) قارضه : جازاه (التاج) يقارض الناس يلاحيهم ويواقعهم (الأساس) والقول لأبى الدرداء

(٤) أبو الدرداء . قلاه يقليه قلى وقلاء (بالفتح) ومقلية وقلية (كرضية) يقلاه : أبغضه ، والهاء للسكت ، والمعنى وجدت الناس أى علمتهم مقولا فيهم هذا القول أى ما منهم أحد إلا وهو مسخوط الفعل عند الخبرة (الفائق للزمخشرى)

(٥) أبو العلاء

(٦) المتنبي . وصدر البيت : (كذب المخبر عنك ، دونك وصفه)

(٧) عمارة اليمنى

إلى أخي النازح إلى باريز!

للأستاذ علي الطنطاوي

« هـذا الذي أقوله لأخي ، يقال لـكل طالب مسلم يدرس في أوربة »
« ع »

يا أخي !

لما دخلتَ (مسابقة البعثة) أمّلت لك بالفوز لما عوّدك الله من التوفيق والمعونة ، وخفت عليك الخيبة لأن (الوزارة) لا تريد إلا مبعوثاً واحداً في (العلوم الرياضية) من سورية كلها ، وأنى لك أن تكون ذاك الواحد ؟

فلما ظهرت النتيجة ، وكنت أنت الناجح في (فرع الرياضة) ، وكنت الناجح في (الطبيعة) أيضاً ، حمدت الله على هذه المنة ، وذهبت أستعجلك بالسفر

ولما عزمت أعددت لك ما تريد وأنا فرح مستبشر مسرور كنت مسروراً لأني أعلم أنك ذاهب تطلب العلم ، وتخدم الوطن ، وتقوم بالواجب

ولـكن لم يكد يتحقق الأمر ، ويأزف الرحيل ، وأرى الباخرة الفخمة (ماريت باشا) رابضة حيال المرفأ (في بيروت) تسطع أنوارها وتتلألأ ، وألقى نظري على هذا البحر الهائل الذي يمتد في الفضاء أسود مثل الليل ، حتى يغيب في السماء ، أو تغيب فيه السماء ... لم أكد أرى ذلك حتى أدركت الحقيقـة الواقعة ، وعلمت أنك مودع نازح ، فغلبت عليّ العاطفة ، وفاضت نفسي رقة وحناناً

لم أستطع أن أودّعك ، ولم أقوَ على رؤيتك وأنت في الباخرة ، ماخرة بك عباب اليمّ ، تنأى بك عني ، حتى تصير نقطة صغيرة على شاطئ الأفق ، ثم تنحدر إليه ، وتختفي وراءه ، وتخفى أنت معها ، وتصبح[1] في نظري عدماً ، لأني لا أحس لها وجوداً . .

والوداع — يا أخي — جماع آلام الحياة وأساسها ومصدرها ، وأشد ألوان الوداع وآلمها وأمرّها وداع في البحر ، ذاك الذي لا يطيقه ذو قلب ..

ودعتك وداعاً عادياً ، ولبثت في مدرستي ألقي درسي وأنا هادئ الجوارح ساكن الطائر ، ولـكن في القلب مني زلزلة ، وفي الأعصاب ناراً ...

حتى إذا عاد أخوك ناجي الذي صحبك إلى الباخرة نخبرني أنك سرت (على اسم الله) ، أحسست كأن قلبي قد هبط من هذا الزلزال كبناء هوى ، وأن هـذه النار قد تركت أعصابي رماداً منطفئاً فسقطت على كرسي ... لا أدري فيم هذا الضعف ، ولا أحبه من نفسي ، ولـكني أدري أني أتخيلك الآن وحيداً فريداً لا ترى حولك قريباً ولا صديقاً ، تطل من شرفة الباخرة فلا ترى إلا السماء والماء ، وقد أخذك دوار البحر فلم تجد معيناً ولا مسعفاً . وأتصورك في ذلك البلد الغريب الذي لا ترى فيه إلا وجوهاً تنكرها ، وأنت الذي لم يفارق أهله قط ، ولم يغب عن بيته ليلة ، ولم يسافر وحده أبداً ... فلذلك ما أحزن ، وفي ذلك أفكر

* * *

ولـكنها — يا أخي — خطيئة تربيتنا الاتكالية . لو أن آباءنا عودونا ، ولو أنا عوّدناك على الحياة الاستقلالية الصحيحة ، وتركناك وأنت في الثانية عشرة تذهب وحدك وتعود وحدك ، وعودناك حمل التبعات وأيقظنا فيك شخصيتك ولم ندعها ضائعة في شخصياتنا ، ودفعناك إلى استثمار مواهبك ولم نتركها معطلة ، لو فعلنا ذلك وأنت في الثانية عشرة لما خفت عليك السفر وحدك إلى باريز وأنت في طريق العشرين !

يا أخي .

إنك تمشي إلى بلد مسحور (والعوذ بالله) ، الذاهب إليه لا يؤوب ، إلا أن يؤوب مخلوقاً جديداً وإنساناً آخر غير الذي ذهب ... يتبدل دماغه الذي في رأسه ، وقلبه الذي في صدره ، ولسانه الذي في فيه ؛ وقد يتبدل أولاده الذين هم في ظهره إذا حملهم في بطن أنثى جاء بها من هناك !

إي والله يا أخي ، هذه حال أكثر من رأينا وعرفنا (إلا من عصم ربك) ، يذهبون أبناءنا وإخواننا وأحباءنا ، ويعودون عداةً لنا ، دعاةً لعدونا ، جنداً لاستعمارنا ... لا أعني استعمار البلاد ، فهو هيّن لين ، ثم إننا قد شفينا منه بحمد الله أو كدنا ...

(١) تصبح هي لا هو

وإنما أعنى استعمار الرؤوس بالعلم الزائف ، والقلوب بالفنّ الداعر ، والألسنة باللغة الأخرى ، وما تبع ذلك من الارتستات والسينمات وتلك الطامات ، من المخدرات والخمور ، وهاتيك الشرور ...

فانتبه لنفسك واستعن بالله ، فإنك ستقدم على قوم لا يبالى أكثرهم العفاف ، ولا يحفل العرض . سترى النساء فى الطرقات والسوح والمعابر يعرضن أنفسهن عرض السلعة ، قد أذلهن مدنية الغرب وأفسدتهن ، وهبطت بهن إلى الحضيض ، فلا يأكلن خبزهن إلا مغموساً بدم الشرف ، وأنت لا تعرف من النساء إلا أهلك ، مخدّرات معصومات كالدّر المكنون ، شأن نساء الشرق المسلم ، حيث المرأة عزيزة مكرّمة ، محجوبة مخدرة ، ملكة فى بيتها ، ليست من تلك الحطة والمذلة فى شئ ... فإياك أن تفتنك امرأة منهن عن عفتك ودينك ، أو يذهب بلبك جمال لها مزوّر ، أو ظاهر خدّاع . هى والله الحيّة : ملمس ناعم ، وجلد لامع ، ونقش بارع ، ولكنّ فى أنيابها السمّ ... إياك والسم !

إن الله قد وضع فى الانسان هذه الشهوة وهذا الميل ، وجعل له من نفسه عدوّا (لحكمة أرادها) ، ولكنه أعطاه حصناً حصيناً يعتصم به ، وسلاحاً متيناً يدرأ به عن نفسه ، فتحصن بحصن الدين ، وجرد سلاح العقل تُوَقّ الأذى كله ... واعلم أن الله جعل مع الفضيلة مكافأتها : صحة الجسم ، وطيب الذكر ، وراحة البال ؛ ووضع فى الرذيلة عقابها : ضعف الجسد ، وسوء السمعة ، وتعب الفكر ، ومن وراء ذلك الجنة أو جهنم ...

فان عرضت لك امرأة بزينتها وزخرفها فراقب الله ، وحكم العقل ، واذكر الأسرة والجدود ... لا تنظر إلى ظاهرها البراق بل انظر إلى نفسها المظلمة القذرة وماضيها الخبيث المنتن ، أتأكل من إناء ولغت فيه كل الكلاب ؟ ؟

يا أخى !

إن فى باريز كل شيء : فيها الفسوق كله ، ولكن فيها العلم . فان أنت عكفت على زيارة المكتبات وسماع المحاضرات وجدت من لذة العقل ما ترى معه لذة الجسم صفراً على الشمال (كما يقول أصحابك الرياضيون) ، ووجدت من نفعها ما يعلقك بها حتى ما تفكر فى غيرها . فعليك بها ، استق من هذا المورد الذى لا تجد مثله كل يوم . راجع وابحث وألّف وانشر ، وعش فى هذه السماء العالية ، ودعْ من شاء يرتعْ فى الأرض ، ويعش على الجيف المعطرة ...

غير أنك واجد فى ثنايا هذه الكتب التى كتبها القوم المستشرقون عن العربية والاسلام ، وفى غضون هذه المحاضرات التى يلقونها ، عدواناً كثيراً على الحق ، وتبديلاً للواقع ، فانتبه له واقرأ ما تقرأ واصغ لما تسمع وعقلك فى رأسك ، وإيمانك فى صدرك . لا تأخذ كل مايقولون قضية مسلمة وحقيقة مقررة ، فالحق هو الذى لا يكون باطلاً ، وليس الحق ما كان قائله أوربيا فانظر أبداً إلى ما قيل ، ودع من قال !

***

ثم إنك سترى مدينة كبيرة ، وشوارع وميادين ، ومصانع وعمارات ... فلا يهولنك ما ترى ، ولا تحقر حياله نفسك وبلدك كما يفعل أكثر من عرفنا من روّاد باريس . واعلم أنها إن تكن عظيمة ، وإن يكن أهلها متمدنين ، فما أنت من سودان أفريقية ولا بلدك من قرى التبّت ... وإنما أنت ابن المجد والحضارة ، ابن الأساتذة الذين علموا هؤلاء القوم وجعلوهم ناساً ، ابن الأمة التى لو حذف اسمها من التاريخ لآض تاريخ القرون الطويلة صحفاً بيضا لا شىء فيها ، إذ لم يكن فى هذه القرون بشر يدوّن التاريخ تاريخه سواهم ... فمن هؤلاء الذين ترى؟ إنما هم أطفال أبناء أربعة قرون، ولكنّ أمتك بنت الدهر لما ولد الدهر كانت شابة ، وحين يموت الدهر تكون شابة ...

لا . لا أفخر بالعظام البالية ، ولا أعتز بالأيام الخالية ، ولا أذكر لك الماضى لتقنع به وتنام ، ولكن أذكره لك لأهز فيك نفسك العربية المسلمة ، لأستصرخ فى دمك قوى الأجداد التى قتلت وأحيت ، وهدمت وبنت وعلمت ، واستاقت الدهر من زمامه فانقاد لها طيعا ... إن هذه القوى كامنة فى عروقك ، قائمة فى دمك ، فليفُر هذا الدم وليثر ويضطرم تظهر ثانية وتعمل عملها

لا تقل : ما ذا يصنع طالب مثلى ضعيف فى أمة قوية ، فإن الأندلس المسلمة كانت بالنسبة لعصرها أقوى ، وكان روادها من طلاب الفرنجة أضعف ، ولكنهم استطاعوا على ضعفهم أن يضعوا (هذه القوة) التى تعجب بها أنت ، ويذوب فيها دين غيرك

وخلقه ... إن الدهر يا أخي دولاب ، والأيام دول . وإن في الشرق أدمغة ، وفي الشرق سواعد ، وفي الشرق مال ، ولكن ينقص الشرق العلم فاحمله إليه أنت وأصحابك ، وعودوا إلى الشرق شرقيين معتزين بشرقيتهم الخيرة العادلة ، كما يعتز الغربيون بغربيتهم الظالمة الطاغية . واعلموا أن مهمتكم ليست ورقة تنالونها ، قد تنال بالغش والاستجداء والسرقة... ولكن مهمتكم أمة تحيونها

يا أخي !

إذا وجدت واسعاً من الوقت فادرس أحوال القوم وأوضاعهم في معايشهم وتجاراتهم وصناعاتهم ومدارسهم ، وابحث عن أخلاقهم ومعتقداتهم ، على أن تنظر بعين الناقد العاقل الذي يدوّن الحسنة لتتعلمها ، والسيئة لتتجنبها . ولا تكن كهؤلاء الذين كتبوا عن باريز من أبناء العرب ، فلم يروا إلا المحاسن والمزايا ، ولا كأولئك الذين كتبوا عن الشرق من أبناء الغرب ، فلم يبصروا إلا المخازي والعيوب ، ولكن كن عادلاً صادقاً أميناً

وإياك وهذه الحماقة التي يرتكبها بعض الكتاب من الفرنجة حين يهرفون بما لا يعرفون ، ويقولون مالا يعلمون ، كهذا الأخرق الصفيق الذي عمل أطروحة موضوعها (الحج) قدمها إلى جامعة كبرى وهو يجهل العربية ، ولا يعرف أي كتاب من كتب المسلمين بحث في الحج ، وإنما جمع الأخبار من الصحف ومن أفواه العامة ؛ وكتب في نظام الريّ في النوطة ، وزعم أنه وفّى البحث وأتمّه ، وهو لا يعرف منه إلا ما خبره به ثلاثة فلاحين لقيهم في قرية ذهب إليها ، مع أن نظام الريّ في الغوطة لا يكاد يعرفه في دمشق إلا نفر قليل... وذاك الذي كان معلماً أولياً في بلده فصار عندنا مدير دار المعلمين العالية ، فذهب مع طلابه إلى ظاهر دمشق ، فمشى ينظر على جانبي طريق (الربوة) هنا وهناك... فوجد في الجبل أثراً للماء ، فقال : من أين جاء هذا الماء ؟ لا بدّ أن يكون جاء من بردى ، إذ لا ماء في دمشق إلا من بردى . فماذا تكون نتيجة (البحث العلمي) في هذه المسألة ؟ هي أن بردى كان يصل إلى هنا ... إذن فقد كان عرض بردى في الماضي أربعمائة متر ... وانطلق يقرر دائماً هذه الحقيقة !

***

وبعد يا أخي ، فاعلم أن أثمن نعمة أنعمها الله عليك هي نعمة الايمان ، فاعرف قدرها ، واحمد الله عليها ، وكن مع الله ترَ الله معك وراقب الله دائماً ، واذكر أنه مطلع عليك ، يعصمْك من الناس ويُعذْك من الشيطان ، ويوفقْك إلى الخير

وفي اللحظة التي تشعر فيها أن دينك وأخلاقك في خطر ، احزم أمتعتك وعد إلى بلدك ، وخلّ (السوربون) تَنْعِ من بناها ... وانفض يدك من العلم إن كان لا يجيء إلا بذهاب الدين والأخلاق ...

أستودع الله نفسك ودينك وأخلاقك ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته

علي الطنطاوي

أطراف من تاريخ الملابس عند المسلمين

للعلامة المستشرق دوزى(*)

للأديب محمد طه الحاجرى

كاد فن صناعة الملابس أن يكون مجهولاً في العهود الإسلامية الأولى، يوم كان العرب كلهم بدواً إلا قليلا، وكانت المدن صغيرة ضئيلة الخطر، فكانت الأردية البسيطة المفردة كافية في الوقاية من البرد والحر. وما كانوا يحسبون أن من الممكن أن تصنع الملابس على أسلوب رشيق، بل كان ناسج الثوب هو وحده الذى يقوم بالأمر. ولكن العرب حينما فتحوا وشيكا قسما كبيراً من آسيا وأفريقية وأوربا، اتصلوا بالشعوب التي غلبوها، وكانت قد وصلت إلى درجة عالية من الحضارة، فلم يلبثوا أن تركوا شيئاً فشيئا حياة البادية، وأخذوا يستقرون فى المدن(١). وكذلك أدركوا أن فى مكنتهم أن يصنعوا لأنفسهم ثياباً أرشق مما كانوا يلبسون، فأخذوا كثيراً من زى الشعوب التى غلبوها. ولما كانت مظاهر الترف قد تقدمت عند الفرس تقدماً عظيما، فقد أحس بلاط بغداد إحساساً مطرداً بنفوذ جيرانه ورعاياه، كما أن تقدم الحضارة والتجارة أنشأ مصانع من كل نوع. وما أسرع ما ضمت بغداد عدداً عظيماً منها، كان مقدار ما فيها من الثياب الحريرية الفاخرة، والأقمشة المصفوفة بالذهب والفضة وما إليهما، يتضاعف مضاعفة مستمرة

أما فى المغرب فكان الأمر على العكس من ذلك، إذ اختلط العرب بالمراكشيين والبرابرة، وهم شعوب جافية، دون فاتحيهم فى الحضارة، فكانت مظاهر الترف مجهولة لديهم، فأخذ العرب منهم إلى حد ما زيهم البسيط الغليظ

أما فى الأندلس فقد استخلص العرب لأنفسهم جزءاً كبيراً من زى الفرسان المسيحيين، ولا سيما في العهد الأخير من عهود ملكهم. ويصرح ابن سعيد بأن أقبية عرب الأندلس كانت تشبه أقبية المسيحيين. ويقول ابن الخطيب المؤرخ، وهو يتحدث عن محمد بن سعد بن محمد بن أحمد بن مردنيش المتوفى فى النصف الثاني من القرن السادس الهجرى: «وآثر زى النصارى من السلاح والملابس واللجم والسروج»

أما فى مصر والشام فقد عانى الزى تغيرات عظيمة بسبب غارة الأتراك

وقد أحدث امتزاج العرب بالأجانب أن وجد دائما اختلاف كبير بين أزياء الشعوب المختلفة التي تكون الامبراطورية العربية الشاسعة، حتى أنه ليستطاع لأول وهلة أن يميز عربي الشرق من عربي الغرب. ويقول ابن إياس، وهو يتحدث عن المؤرخ الشهير ابن خلدون: «واستقر لما تولى القضاء وهو بزي المغاربة فعد ذلك من النوادر» ويقول النويرى وهو يروى وفاة الملك القاهر بهاء الدين أبى محمد عبد الملك بن الملك المعظم: «وكان يلبس ملابس العرب ويتزيا بزيهم ويركب كمركبهم ويتخلق بأخلاقهم فى كثير من أفعاله» وحتى الذين يسكنون المدن القريب بعضها من بعض كانوا يختلفون فى أزيائهم، فقد كتب أحد المغاربة — وسماه مارمول Francisco Nunez Muley — يقول، حينما حرم فيليب الثانى على مغاربة الأندلس أن يلبسوا زيهم الوطنى: «إن زى نسائنا ليس مغربياً بل هو زى مدنى كما فى قشتالة، وإن الشعوب الإسلامية فى البلاد الأخرى لتختلف فى أغطية الرأس وفى الثياب والأحذية. ومنذا الذى ينكر أن زى مراكشيات أفريقية والتركيات يختلف عما تلبسه نساؤنا فى غرناطة؟ وكذلك تختلف أزياء الرجال، فليس زى فاس كزى تلمسان، وليس زى تونس كزى مراكش، وكذلك الأمر فى تركيا والممالك الأخرى»

وهناك فوق ذلك اختلاف كبير فى زى الطبقات المختلفة التى تتكون منها الجماعة الاسلامية حتى ليستطاع تمييز الرجل الخاصى من العامى والجندى من شكل العمامة على الأخص، وكذلك كانوا يعرفون بها المنصب الذى يشغله من يلقونه

بيد أنه يجب ألا يؤخذ هذا القول بوجه عام إلا عند أهل المدن، أما البدو فقد احتفظوا تقريباً بالزى القديم، ولاحظوا تعاليم الدين أكثر من الحضريين.

(*) ترجمة الفصل الذى كتبه مقدمة لكتابه القيم: «قاموس تفصيلى بأسماء الملابس عند العرب»

(١) راجع مقدمة ابن خلدون فى الفصل الذى عقده عن صناعة الحياكة والخياطة

ولقد حدث محمد (ص) أحاديث عديدة ليمنع مظاهر الترف في الثياب من أن تتغلغل في أمته ، وقد استخلص فقهاء الاسلام من هذه الأحاديث نظاماً بالمبادىء والقوانين الخاصة بالزى ، وسنعرضها هنا وفقاً لما جاءت به كتب الفقه الحنفى والمالكى

إن وظيفة الملابس ، على ما يقول كتاب ملتقى الأبحر ، هي ستر العورة والوقاية من الحر والبرد ؛ والأفضل أن تكون من القطن أو الكتان غير مغالى فيها ولا شديدة الرثاثة . وليس أخذ الزينة حراماً متى كان لإظهار نعم الله التى تفضل بها علينا . أما حين تصدر عن الكبرياء فانه ممنوع . وكثيراً ما أوصى عظماء العرب والفرس بالتواضع فى هيئة اللباس ، ويقول النورى ، مثلا ، وهو يمدح صلاح الدين :

« وكان لا يلبس إلا ما يحل كالكتان والقطن والصوف »

ويقول فى موضع آخر بمناسبة موت الأمير جمال الدين ايدغدى العزيز : « وكان مقتصداً على ملبسه يلبس الثياب القطن من الهندى والبعلبكى وغيره مما يباح ولا يكره لبسه » (راجع : Anthologia Cersicp, pag. 56, 58).

والحرير مباح للنساء محرم على الرجال إلا أن يتخذوا منه حاشية لثيابهم لا يتجاوز عرضها أربعة أصابع فذلك جائز لهم ؛ ويرى البعض ألا تتجاوز إصبعين ؛ أما المالكية فيرون ألا يبلغ عرضها عرض إصبع واحد . وقد نهى النبى (ص) نهياً مشدداً عن الملابس الحريرية فقال : « من لبس الحرير فى الدنيا فلن يلبسه فى الآخرة » وقال : « إنما يلبس الحرير فى الدنيا من لا خلاق له فى الآخرة » ويجيز الحنفية للرجال أن يلبسوا ثياباً سداها من الحرير ولحمتها من غيره ، وأما عكس هذا ، أى أن تكون اللحمة من الحرير والسدى من غيره فلا يحل إلا فى الحرب . ولا يتفق المالكية فيما بينهم فى جواز لبس القماش المسمى بالخز ، وهو ما سداه حرير ولحمته صوف ، ولكن الأكثرين على منعه

والأكثر استحباباً من الألوان الأبيض والأسود ؛ أما الأبيض فلقول الرسول (ص) : « إن الله يحب الثياب البيض وإنه خلق الجنة بيضاء »

ويقول مؤرخ إفريقى وهو يمدح عبدالرحمن الأول أول ملوك الأندلس : « كان يلبس البياض ويعتم به » ، وأما الأسود فلأن محمداً (ص) كان يلبس يوم فتح مكة جبة سوداء وعمامة سوداء كذلك . أما الشيعة فعلى العكس من ذلك يحرمون السواد ، إذ نقرأ فى رحلات شردان Vayages de chardin ما يأتى :

« ولا يلبس الأسود فى الشرق ولا سيما فى فارس لأنه لون مشئوم بغيض لا يمكن النظر إليه ، ويسمونه لون الشيطان » أما اللونان الأحمر والأصفر فمكروهان من غير أن نعرف سبب كراهيتهما ؛ غير أنى أفرض أن الأصفر مكروه لأنه لون البغض ، والأحمر لأنه لون الدم . ومع هذا فكثيراً ما يلبس المسلمون ثياباً حمراء وصفراء . ويقول ابن جنى والواحدى : إن الفتيات يلبسن عادة ملابس حمراء . أما الملابس الخضراء فلا يلبسها إلا الأشراف سلالة الرسول (ص)

ويظهر أنه ليس بين الحنفية والمالكية والشافعية كبير خلاف فى فصل الملابس ، ولكن يظهر أن مذهب ابن حنبل ، وهو أكثر المذاهب تشدداً ، قد أبعد فى التشدد فى هذه المسألة . وها هو ذا ما جاء فى تاريخ مصر للنويرى (فى حوادث سنة ٧١٦)

« وفى هـذه السنة فوض قضاء قضاة الحنابلة بدمشق إلى شمس الدين أبى عبد الله محمد ، ووصل إليه بتقليد القضاء من الأبواب السلطانية في يوم السبت ثامن صفر . وقرئ بجامع دمشق بحضور القضاة والأعيان ، وخرج القاضى شمس الدين المذكور من الجامع ماشياً إلى دار السعادة ، فسلم على نائب السلطنة ، ثم نزع الخلعة السلطانية وتوجه إلى جبل الصالحية وجلس للحكم فى سابع عشر صفر ، وما غير هيئته ولا عادته فى مشيه وحمل حاجته ، ويجلس للحكم على مئزر غير مبسوط ، بل يضعه فى يده ويجلس عليه ، ويكتب فى محبرة زجاج ، ويحمل نعله بيده فيضعه على مكان ؛ وإذا قام من مجلس الحكم حمله أيضاً حتى يصل إلى آخر الإيوان فيلقيه ويلبسه . هكذا أخبرنى من أثق بأخباره ؛ واستمر على ذلك ، وهذه عادة السلف »

ولست أدرى إن كان كل الحنابلة على هذا التواضع الشديد أم هم القضاة وحدهم ؟ ويؤسفنى أن ليس لدى من فقه الحنابلة ما أراجعه فى هذه المسألة ، بل يظهر أن هذا الفقه نادر جداً فى أوربا

ولكى نكون لأنفسنا فكرة عن التطورات التى طرأت على زى العرب نقارن ثوب محمد صلى الله عليه وسلم بثوب رجل من الطبقة المتوسطة من أهل القاهرة فى القرن السادس عشر بعد غارة الأتراك

كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) يلبس قميصاً من القطن الأبيض تصل أكمامه إلى المعصم، وسروالاً من القماش؛ وما كان فوق القميص والسروال — فيما يظهر — إلا ثوب واحد هو الجبة؛ وهي ثوب طويل من الصوف، وحواشيه من الحرير، مفتوح من أمام، ضيق الأكمام؛ أو القباء، وهو ثوب طويل مهيأ بالأزرار من أمام. وكان يلبس في بعض الحالات — بدلاً من هذه الثياب — كساء من القماش الغليظ، وهو عادة قطعة كبيرة من الصوف السميك رمادية اللون مخططة، يلف بها الجسم، وهي (البردة). وكان محمد (صلى الله عليه وسلم) يلبس العمامة البيضاء أو السوداء ويرخي طرفاً منها على ظهره. وأما حذاؤه فكان نعالاً مصنوعة من جلد الإبل، مربوطة بسيرين يمر أحدهما بوسط القدم والآخر بين الإبهام وما يليه

فنحن نرى أن زي الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان في غاية البساطة، ولا يزال هو زي أهل الصحراء في أيامنا هذه. فالبدو لا يلبسون — مثل الرسول — إلا قميصاً من القطن، وثوباً طويلاً، وقد يستعيضون عنه بكساء من الصوف

أما زي الرجل القاهري في القرن السادس عشر، فيتألف من عدد عظيم من الملابس — فلا نرى بحال ما تلك البساطة التي كانت تميز زي الرسول، والتي لا تزال ترى في زي البدو — فكان يلبس فوق القميص والسراويل قفطاناً من الحرير في ألوان مختلفة قد خالط بعضها بعضاً، ولهذا الثوب أكمام فضفاضة؛ ثم يلبس فوق القفطان حزاماً من الحرير أو الوبر أو الصوف، ثم جبة طويلة مفتوحة من الأمام، ذات كمين قصيرين لا يصلان إلى المعصم حتى يظهر طرفا كمي القفطان وقد تجاوز الأصابع؛ وهذا الثوب أقصر قليلاً من الأمام عنه من خلف، وهو مصنوع من القماش الأحمر أو الأزرق أو الرمادي؛ ثم يلبس فوق الجبة ثوب فضفاض يصنع عادة من الوبر، ويزين أحياناً بالفراء، وهو الفراجية. أما غطاء الرأس فيتكون من طاقية صغيرة من القطن وطربوش أحمر وقطعة طويلة من الشاش (الموسلين) تستدير حول الرأس. وأما الحذاء فمن الجلد المراكشي الأحمر

وجمال الثياب وعددها يخلع على لابسها في الشرق العظمة ويبعث على احترامه ويقول المثل الفارسي «قربت بلباس» ويفسره تافرنييه Tavernier بقوله: بمقدار ما تتجمل في ثيابك، تقابل بالاجلال، وتنال الحظوة في القصر والقربى لدى العظماء. أما في مصر فهاك ما جاء من ذلك في كتاب «وصف مصر» Descriptian de L' Egypte: كلما كدس الناس من الثياب على أجسامهم ضاعفوا الاحترام والتقدير الذي يبغونه لأنفسهم»؛ فليس يبدو غريباً إذن أن يعنى الشرقيون بأن تكون ثيابهم نظيفة طيبة الرائحة، وقد جاء في الأغاني عبارة: «ملاءة مطيبة» كما نقرأ في تاريخ مصر للنويري أنه وجد في ذخائر أحد العظماء لبة من العنبر على قدر جسده، برسم ثيابه، توضع ثيابه عليها لتكتسب رائحتها. وورد في «ألف ليلة وليلة» هذا البيت من الشعر:

وتميس بين مزعفر ومعصفر ومعنبر وممسّك ومصندل

كما وردت فيه أيضاً هذه الفقرة: «لبست تلك البذلة الفاخرة وكانت مطيبة» وفي موضع آخر منه: «فقمدت تبخره فطارت شرارة فأحرقت طرفه». ويقول بوركهارت Burekhardt عن وهابي نجد أنهم يعنون بتطييب الكوفية بأنواع من الطيوب وتخص الأردان بالتطييب، ففي قصيدة للمتنبي يقول:

أتت زائراً ما خامر الطيب ثوبها وكالمسك من أردانها يتضوع

أما عادة منح الثياب للدلالة على التقدير فعادة شرقية قديمة؛ ومع ذلك يقول المقريزي: إن أول من استعملها هو هرون الرشيد حينما خلع على نديمه جعفر بن يحيى البرمكي. ويسمى ثوب الشرف هذا خلعة، ثم سمي بعد هذا تشريفا. ثم لما تغلغلت هذه العادة أصبحت من القوة بحيث كان الأمير يخلع الرداء الذي يرتديه، فيلبسه الشخص الذي هو موضع تكريمه أو أجازته. ولكن يظهر أن الأمراء لم يكونوا بعد ذلك يهبون من الثياب إلا مما هو مودع في خزائن ثيابهم، أو ما كان جديداً كل الجدة؛ ولكنه كان من دلائل الشرف دائماً أن يلبس الرجل ثياباً كان الأمير يلبسها من قبل؛ ولم يفت المؤرخين أن يشيروا إلى ذلك، فما يحكي النويري هذه العبارة: «أنعم على الأمير سيف الدين بشربوش كان قد لبسه»

أما حين يراد معرفة أنواع الثياب التي تتألف منها الخلعة أو التشريف، فقد أشرفنا على مسألة شديدة الصعوبة؛ وإن يكن يخيل إلى أن الأمر كان يرجع، في حكم بعض الأسر، إلى اختيار الأمير المطلق؛ ومع هذا، فإذا كان فييرس Veijers يحسب أن الخلعة كانت تتكون غالباً، أو مطلقاً، من القباء وحده، فإني أرى لزاماً على أن أدل هنا على أن هذا رأى خاطىء الأساس. وإذا

كان صحيحاً أن ثوب الشرف كان يتكون ، فى حكم حسن باشا لليمن ، من القباء ، فإن الأمر لم يكن كذلك فى بغداد ومصر مثلا ، فقد كانت الخلعة أو التشريف تتكون من ثياب مختلفة غير ذلك . فالنويري يذكر لنا أن الخلعة التى وهبها خليفة بغداد للملك الناصر داود كانت تتكون من قباء حريرى وشربوش ، كما يحكى فى موضع آخر أن الخلعة التى أعطاها الخليفة العباسى المعتصم بالله كانت تتكون من عمامة سوداء وفراجية موشاة بالذهب . ونقرأ فيما بعد ذلك أن ثوب الشرف الذى منحه الخليفة كان يتألف من عمامة من الحرير الأسود المطرز بالذهب ودراعة . أما الخلعة التى كانت تعطى للوزير فى مصر فكانت تتألف من جبة وفراجية وطرحة . وكذلك كان التشريف يتكون من ثياب مختلفة . وأخيراً تدلنا عبارة أخرى للنويرى على أن ثياب الشرف كانت تختلف فى القماش الذى صنعت منه ، والقطع التى تتألف منها حسب مرتبة من تقدم إليه ، أو حسب الخدمات التى أداها للأمير

وكان الأمير فى كثير من الأحوال ، يقدم إلى جانب الخلعة خنجراً وحصاناً وأشياء أخرى . كما أنا كثيراً ما نقرأ عن خلعة كاملة وتشريف كامل

وكانت ثياب الشرف التى يهبها الخلفاء العباسيون تكاد تكون دائماً سوداء

ولم تكن الغاية من الثياب منحصرة لسوء الحظ ، فى الزينة بل كان شيطان البغض والانتقام يستعملها فى انتزاع الحياة بطريقة دنيئة . ومن المعروف عند الغربيين أن الثياب كانت تستعمل فى القرون الوسطى لهذه الغاية . ويكفى قليل من الأمثلة المأخوذة من التاريخ الإسلامى لإثبات أن هذا الأسلوب من الانتقام الدنئ لم يكن مجهولاً فى الشرق . والنويرى يقص علينا أن السلطان الأيوبى ، الملك المعظم ، أضمر سخطاً شديداً على قاضى القضاة لأنه أقنع أخت صلاح الدين والملك العادل ست الشام بنت أيوب أن توقف أموالها على بعض المؤسسات الدينية ، فخيبت حماسة القاضى الدينية آماله . ولقد حاول الأمير عبثاً أن يجد حجة يستطيع أن ينتقم بها من القاضى ، ثم لما وجد أخيراً هذه التعلة أرسل إليه وهو فى مجلس حكمه ، وحوله جماعة كثيرة من العدول والمتحاكمين ، فلما جاءه الرسول قال له : السلطان يسلم عليك ويقول لك : الخليفة ، سلم الله عليه ، إذا أراد أن يشرف أحداً من أصحابه خلع عليه من ملابسه ، ونحن نسلك طريقه ؛ وقد أرسل إليك من ملابسه ، وأمر أن تلبسه فى مجلسك هذا وأنت تحكم بين الناس ؛ وكان الملك المعظم أكثر مايلبس قباءاً أبيض وكلوتة صفراء . وفتح الرسول البقجة ، فلما نظر القاضى إلى ما فيها وجم . قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة فأخبرنى الرسول الذى أحضر هذه الخلعة والرسالة بذلك . قال وكان السلطان أمرنى أن ألبسه إياها بيدى إن امتنع أو توقف ، فأشرت عليه بلبسها وأعدت الرسالة عليه ، فأخذ القباء ووضعه على كتفه ، ووضع عمامته على الأرض ولبس الكلوتة الصفراء على رأسه ، ثم قام ودخل بيته ، ومرض إثر هذه الحادثة ورمى كيده ومات ؛ ويقال إن ذلك كان فى يوم الأربعاء السابع والعشرين من شهر ربيع الأول سنة تسع عشرة وسبعمائة »

ويذكر بعض المؤرخين الأسبان أن ملك قشتاله الدون انريك Eon Lnrique مات مسموماً لأن ملك غرناطة محمداً أهدى إليه حذاء بن عمرا فى السم

وكانت الثياب السوداء تلبس قديماً للدلالة على الحداد ، سواء فى لبسها لذلك الرجال والنساء . ومن المعلوم أن زى العباسيين الأسود إنما انتحل حداداً لموت الامام إبراهيم بن محمد وكذلك جاءت هذه العبارة فى تاريخ مصر للنويرى : « شق القاهرة وهو لابس السوداء ، وأعلامه كذلك ، حزناً على الظاهر »

ولكن الرجال فى الأزمنة المتأخرة صاروا لايلبسون ثياب الحداد ، إذ كانت تبدو كأنها دليل على عدم الصبر على ماقدر الله أما النساء فلا يزالون يلبسونها فى الشرق ، ولكن عند موت الزوج أو القريب الأدنى ، ولا يلبسونها فى موت من تقدم به العمر . وقد جاء فى معجم الأعلام الذى وضعه ابن الخطيب أن الشاعرة الشهيرة حفصة ، عشيقة أبى جعفر احمد بن سعيد ، الشاعر الشهير ووزير صاحب غرناطة ، لبست الحداد حين بلغها أن حبيبها قد قتل ، ولكن هذا من غير شك شذوذ من العادة العامة

ويكون الحداد بأن تصبغ المرأة بالنيلة قميصها وقناعها الذى تغطى به رأسها وتستر به وجهها ومنديلها صبغة زرقاء قاتمة أو قريبة من السواد . وتلبس النساء ثياب الحداد فترة الأيام السبعة أو الخمسة عشر أو الأربعين فى بعض الأحيان

أما فى الأندلس ، أثناء حكم الخلفاء الأمويين فكانت ثياب

أناشيد صوفية

جيتانجالي

للشاعر الفيلسوف طاغور

بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب

— ١٣ —

إن اللحن الذي جئت لأترنم به ظل مكفوفاً في نفسي للآن

وتصرمت الأيام وأنا أشد أوتار قيثاري وأرخيها

لم يأن لي أن أبدأ فالكلمات لم تواتني ، غير أن الرغبة الملحة تتنزى في قلبي

إن الكم لم يتفتح ، ولكن الريح تزف حواليه

لم أر وجهه ، ولم أسمع رنات صوته ؛ غير أني استشعرت خطواته الرفيقة وهو يسير الهوينى أمام داري

ومر اليوم الطويل وأنا أهيئ له مكاناً ، ولكني لم أستطع أن أدعوه إلى داري لأن سراجي كان هامداً

وهأنذا أعيش بالأمل في لقياه ، ولكن اللقيا لم تحن

— ١٤ —

إن رغباتي كثيرة ، وفي صيحاتي الألم ؛ أفتردني في رفض قاس والرحمة منبثة في أضعاف حياتي هنا وهناك ؟

وعلى مر الأيام جعلتني أستأهل من آلائك العظيمة ما أنعمت به علي دون سؤال : هذه السماء والنور ، هذا الجسم والحياة والعقل ثم نجيتني من خطر الرغبة الجامحة

في حين كنت أتباطأ في فتور ؛ وفي حين آخر كنت أهب مسرعاً إلى الغاية ؛ ولكنك كنت تخفي نفسك عني في قسوة

وعلى مر الأيام جعلتني أستأهل منك القبول المحض بعد طول رفضك إياي ، وأنت جنبتني خطر التخاذل والرغبة المضطربة

— ١٥ —

أنا هنا لأردد لك الأناشيد ، ولأجلس في زاوية من فنائك

لا عمل لي في دنياك ، فحياتي الخاوية تتفجر عن ألحان لا غاية لها

وعند منتصف الليل ، حين تدق الساعة في محرابك المظلم ، مؤذنة بصمت العبادة الرهيب ؛ مرني ، يا إلهي ، أن أقف أمامك لأرتل أغاني

وبين نسمات الفجر ، وقيثارك الذهبية تصدح ، شرفني واطلب إلي أن أتقدم نحوك

— ١٦ —

لقد لبيت الدعوة إلى مهرجان الحياة ، فكانت حياتي سعيدة .

إن عيني تبصران ومسمعي تسمعان

وكان عملي في هذا الحفل أن أعزف على قيثاري ، فبذلت غاية جهدي

والآن ، أسأل : أفلم يأن لي أن أنطلق لأرى وجهك وأحييك في صمت وهدوء

— ١٧ —

أنا أنتظر من أحب لألقي بنفسي بين ذراعيه . هذا هو عذري حين أبطأت ، وهو ذنبي حين أهملت

لقد جاءوا جميعاً وبين أيديهم القانون ومواده ليوثقوا بقيدي فأفلت من قبضتهم لأني أنتظر من أحب لألقي بنفسي بين ذراعيه

والناس يلومونني ويرمونني بالغفلة ، ولا ريب فهم على حق

انفضت السوق ، وأنجز كل ذي عمل عمله ، وانصرف الذين جاءوا ينصحونني وفيهم الغيظ والغضب ؛ وأنا أنتظر من أحب لألقي بنفسي بين ذراعيه

— ١٨ —

إن السحب تتكاثف في السماء والدنيا تظلم ؛ آه ، يامن أحب ، لماذا تركتني وحيداً في هذا العراء ؟ عند الظهر في ساعات العمل ،

الحداد بيضاء . إذ نقرأ في تاريخ الأندلس للمقرى هذه العبارة : « عليهم الظهائر البيض شعار الحزن »

. ويلبس العرب ثياباً حمراء أو صفراء حينما يريدون الدلالة على الغضب . وقد جاء في كتاب ألف ليلة وليلة هذه العبارة : « لبس بدلة الغضب وهي بدلة حمراء » ولكن هذه العادة ربما كانت عادة تركية

أما في الغرب فكان اللون الأصفر هو الذي يدل على الغضب فقد لاحظ بيدودي سن أولون ويندوس Pidoude St. Olon et Windus أن ملوك مراكش كانوا إذا اعتزموا أن يسفكوا دماً لبسوا في الغالب ثياباً صفراء

محمد طه الحاجري

أندفع بين الزهر . والآن فهذا اليوم الظليل الهادىء هو لك يامن تعلق به أملى

فإذا لم تطلع علىّ لأجتلى النور من وجهك، وتركتنى وحيداً فكيف أقضى هذه الساعات الطويلة الممطرة

أنا أحدق فى السماء المتجهمة ، وقلبى المضطرب يئن مع الرياح العاصفة

— ١٩ —

إذا لم تتحدث حديثك فاملأ قلبي من صمتك العميق وأحمله راضياً ؛ سأطمئن وأنتظر كالليل لتسهر كواكبه ورأسه مطأطأ فى صبر

لا ريب فالصباح آت ليبدد الظلمات ، وسيتدفق صوتك فى مجاريه الذهبية يخترق أطباق السماء ، وسيرفرف كلمك فى جناحى لحن كأنه طيرى الغرّيد ، وتتفتح أنغامك عن زهر فى أنحاء حديقتى

— ٢٠ —

يا أسفا ! فى اليوم أينعت زهرة اللوتس . كان عقلى مضطرباً فلم أحس بها ، وكانت سلتى فارغة ولكن الزهرة ظلت مكانها

الآن شملنى حزن عميق ، فهببت من حلمى لأستروح نسمات عطرية تحملها رياح الجنوب

فبعثت هذه النسمات الحلوة فى قلبى آلام الحنين ، وتراءت لى كأنها زفرات الصيف العاشق وهو يفتش عن نصفه الآخر

ما كنت أعلم أن هذه الزهرة على خطوات منى ، وأنها هى لى ، وأن هذه الحلاوة قد تفتحت فى أعماق قلبى

— ٢١ —

لا بد أن أتناول غدائى على الشاطئ ، ومرت الساعات متباطئة على الشاطئ . فيا أسفى !

لقد تفتح الربيع عن زهراته وأوراقه الخضراء ، وأنا أضرب فى الأرض منتظراً وعلى كتفى حمل من زهراتى الذابلة الذاوية

الأمواج تضطرب فى صخب ، وعلى الشاطئ شجرات من الخوخ يانعة تعصف الريح بأوراقها الصفراء

لماذا تحدق فى الفضاء ! أفلا تستشعر فى الهواء هزات تحمل نغم لحن جاء فى أضعافها من الشاطئ الآخر

— ٢٢ —

تحت ظلال شهر يوليه المطير ، تسير أنت فى خطوات هادئة وفى صمت لا يشعر به الرقيب

واليوم أغمض الصباح جفنيه ، لا يعبأ بصفير الرياح الشرقية وهى تلح فى ندائها ، وقد أسدل نقاب كثيف على وجه السماء الأزرق المتألق

وأمسكت الغابة عن ترديد لحنها ، وغلقت الأبواب ؛ وأنت... أنت يا عابر السبيل تضرب فى الطريق الصحراوى وحيداً . أوه ، يا صديقى العزيز ، يا من أحب ، إن باب دارى مفتوح على مصراعيه فلا تمر به كأنك حلم

— ٢٣ —

يا صديقى ، أفأنت فى العراء تتم رحلة الهوى فى هذه الليلة العاصفة ؟ وإن السماء تئن كأنها مصدور ينفس عن نفسه

لقد أرقت الليلة ، يا صديقى وباب دارى مفتوح فانظر إليه فى هذا الظلام الدامس . أنا لا أرى — فى هذا الظلام — شيئاً مما أمامى ، فلا أستطيع أن أجد الطريق إليك

عند شاطىء أى نهر مظلم قاتم ، لدى حافة أية غابة سوداء حالكة ، وفى ثنايا أى عمق معتم منسل ، جلست يا صديقى ، ترسم فى نفسك الطريق إلىّ

— ٢٤ —

إذا انطوى النهار ، وصمتت الطيور الغريدة ، وهدأت الرياح الزفزافة ؛ فانشر علىّ قناعاً صفيقاً من الظلمة كما نشرت على الأرض أستار النوم ، وكما لففت أوراق زهرة اللوتس الذابلة فى غيابة الظلام

نحّ عن السائح الذى نفد زاده ، وتمزقت ثيابه ، وتشعث واغبر ، وخارت قوته ، وانطفأت منته ، قبل أن يبلغ غايته ... نحّ عنه الضنا والفقر ، وانفث فيه من روح الحياة ليكون كزهرة تلفعت برداء الليل الرفيق

— ٢٥ —

فى الأمسية التى أكدّنى فيها الجهد ، دعنى أنم هادئاً وفى نفسى الإيمان بك

ولا تطلب إلىّ أن أرهق نفسى المتعبة بعبادتك

فأنت الذى حسرت عن عينى النهار نقاب الظلام ليبدو فيهما النشاط والمرح من جديد بعد أن أضناهما التعب والأسى

كامل محمود حبيب

أبو إسحاق الصابى

للأستاذ عبد العظيم على قناوى

— ١ —

بعثني إلى الكتابة عن أبي إسحاق الصابى رغبة حافزة فى أن أربط بينه وبين أبي الفرج الببغاء أديبين عقّ عليهما الدهر، ثم أراد لأدبهما بعثاً، كما ربطت بين روحيهما أواصر الأدب، فتعارفا متباعدين وتآلفا متقاربين، فقد قدَّمنا أن الصلة بينهما كانت فى الحياة وثيقة العرا محكمة الحلق، لم تشبها شائبة حفيظة، ولقد جعلنى الحديث عن أبي الفرج على ذُكر متصل بأبى إسحاق لا يبرح أفق تفكيرى ولا يحيد عنه، ولا يريم عن محيط ذهنى ولا يقصو دونه. ولعلَّ من أهم عوامل علوق اسمه بذا كرتى، ورسوخ شخصه فى مخيلتى، أن حظّه فى دنياه كان كحظ صنوه، بل إنه كان أسوأ من أخيه جداً وأنكد دهراً، وأتعس رجاء وأملاً، فكلما تقدم به الأجل وأشرق له الأمل أدركته حرفة الأدب، فتضاعف عليه الألم، لا يغنى عنه ما أوتى من ألمعية نادرة، ولا يصرف صروف الدهر دونه ما وهب الله له من مواهب فياضة زاخرة، فَغِيَرَ الدهر تنصب عليه انصباباً، ونوبه تتقاذفه تقاذفاً، وأحداث الزمان تتعاوره كهلاً أناخ به المشيب، وخطوبه تتناوبه شيخاً بما لا يقوى عليه الفتى الصليب. وهكذا دواليك: غمرات تترى، ونكبات تتوالى، ولا يجد على تعاقب الليالى إلا ضيما، وتسومه الأيام بكرها خسفاً وظلماً؛ حتى أنشد وأنشد وتمنى، فكانت المنية هي أصدق المنى، فلله هو إذ يقول:

إذا لم يكن للمرء بدّ من الردى	فأسهله ما جاء والعيش أنكد
وأصعبه ما جاء والعيش رائع	تطيف به اللذات والعيش مسعد
فإن أكُ شر العيشتين أعيشها	فإنى إلى خير المماتين أقصد
وسيان يوما شقوة وسعادة	إذا كان غِبا واحداً لهما الغد

وما زال هذا شأنه لا يحول حاله إلا إلى سوء، وذلك ديدنه لا يتغير أمره إلا إلى غِيَر، وهو يندب جده آناً وآناً، ويشكو بؤسه حيناً وحينا، فلا يجد لشكواه سكينة أو أوْناً، ولا يعرف إلى الحَيْن مهيماً أو سبيلاً؛ حتى صار ملجأ أمراض وأسقام، ومحط أوصاب وآلام. وها هو ذا يشكو زمانته، وآثار الهرم فى كيانه وحاجته إلى محفة يتخذها بدل قدميه اللتين ناءتا بحمله، وشاركتا الدهر فى استثقال ظله، وقد بعث بقصيدته تلك إلى الشريف الرضى، وقد كان يشفق عليه ويرحمه، ويأسو كلومه ويرأمه، قال منها:

إذا ما تعدت بي وسارت محفة	لها أرجل يسعى بها رجلان
وما كنت من فرسانها غير أنها	وفت لى لما خانت القدمان
نزلتُ إليها عن سراة حِصان	بحكم مشيبي أو فراش حَصان
فقد حملت مني ابن تسعين سالكا	سبيلاً عليها يسلك الثقلان
كما حمل المهدُ الصبيَّ وقبلها	ذعرت ليوث الغيل بالنزوان

فجاءت مواساة الشريف له سخية وفية، وعطفه براً سابغاً ضافياً، فقد لأم جروحه بقصيدة تفيض بالعطف أشطارها وتفعم بالود أبياتها منها:

لئن رام قبضاً من بنانك حادث	لقد عاضنا منك انبساط جنان
وإن نُزّ من ذاك الجناح مطاره	فرب مقال منك ذى طيران
وإن أقعدتك النائبات فطالما	سرى موقراً من مجدك الملوان
وإن هدمت منك الخطوب بمرها	فثم لسان للمناقب بان
مآثر تبقى ما رأى الشمس ناظر	وما سمعت من سامع أذنان

من هذه الأبيات ندرك تعاسته وبؤسه، ونتبين آلامه وأسقامه، وما زال يغالب الزمان ويجالد الحدثان حتى أراد الله له الدعة التى طالما تمناها، وآتاه الطِلبة التي كثيراً ما طلبها فعزت عليه. وافاه أجله وقد جاوز التسعين سنة حلب فيها الدهر أشطره فذاق شره مترعاً وقلما طعم خيره، وشرب كئوس البؤس دهاقاً، ولِماماً ألمّ بالنعيم، ولقد كان فى فتوته أسعد حالاً منه فى كهولته وعاش فى شبيبته أنعم بالاً منه فى شيخوخته، وإليك حديثه عن ذلك فى خيال صاف وديباجة مطرزة:

عجباً لحظى إذ أراه مصالحى	عصر الشباب وفى المشيب مغاضبي
أمن الغوانى كان؟ حتى ملنى	شيخاً، وكان على صباى مصاحبي
أمع التضعضع ملني متجنبا؟	ومع الترعرع كان غير مجانبي
يا ليت صبوته إلىّ تأخرت	حتى تكون ذخيرة لعواقبي

وبعد تلك الإلمامة بحاله نتحدث عن نشأته وحياته: يروى ياقوت في معجمه أن أبا إسحاق إبراهيم بن هلال بن زهرون ولد

بحرّان سنة ثلاث عشرة وثلثمائة هجرية ، وأدركته منيته لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر شوال لسنة أربع وثمانين وثلثمائة؛ فسنه على هذه الرواية إحدى وسبعون سنة ، وهو يقول فى تعزيز روايته تلك : (وذكر أبو منصور الثعالبي فى كتابه « يعنى كتاب يتيمة الدهر » أنه بلغ من العمر تسعين سنة والذى أوردته من تاريخ حفيده ، وهو به أعلم) ويقصد بحفيده أبا الحسين هلالا بن المحسن بن ابراهيم الصابى ، ويُعقّب الأستاذ شارح معجم الأدباء على ياقوت فيقول : (إنما قال الثعالبي إنه خنق التسعين أى قاربها)[1] والحق أن الثعالبي ذكر سن أبي إسحاق في موضعين فقال فى صدر الحديث عنه ، وهو بصدد التعريف به (وكان قد خنق التسعين فى خدمة الخلفاء وخلافة الوزراء) ثم قال فى نهاية الفصل الذى كتبه عنه تحت عنوان وفاته (توفى فى يوم الخميس لاثنتى عشرة ليلة من شوال سنة أربع وثمانين وثلثمائة ، وكانت سنوه إحدى وتسعين سنة قمرية)

وإنى إلى تحقيق الثعالبي أمْيَل لوجوه أعدد منها :

أولا : يكاد أبو منصور الثعالبي يعتبر معاصراً لأبى إسحاق الصابى ، فقد توفى أبو منصور عقبه بنحو خمس وأربعين سنة ، وهو أمد قصير في أعمار التاريخ والمؤرخين

ثانياً : السن التى ذكرها صاحب اليتيمة وردت فى قصيدة لأبى إسحاق إذ يقول :

فقد حملت مني ابن تسعين سالكا سبيلا عليها يسلك الثقلان

وقد كان إنشاء هذه القصيدة قبل وفاته بنحو أربعة أشهر

ثالثاً : قد يكون حفيد أبي اسحاق صادراً فى حديثه عن غير تروٍّ وتدبر للحقيقة ، لأنه حديث يسمع وينسى لا كما يصدر حديث عن مؤلف يتحرى الصدق ويلتزم جادة الدقة ؛ لأنه خبر يخلد ويبقي

رابعاً : سن السبعين لا توهي جلداً ولا توهن عظما ، وإن كان صاحبها متزاحمة عليه النائبات مولعة به النكبات إلا فى القليل النادر

وسواء أكان موته عن إحدى وتسعين أم عن إحدى وسبعين فقد خلف فى الأدب أخلد الأثر ، وضرب فى النبل والوفاء أصدق المثل ، فلقد ولد ومات على دين الصابئة ، والصابئون كما يقول الامام الكبير الفخر الرازى فى تفسير قوله تعالى : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر ... الخ الآية) : (قوم يعبدون الكواكب ثم لهم قولان : الأول إن خالق العالم هو الله سبحانه ، إلا أنه سبحانه أمر بتعظيم هذه الكواكب واتخاذها قبلة للصلاة والدعاء والتعظيم . والثانى : إن الله سبحانه خلق الأفلاك والكواكب ، ثم إن الكواكب هى المدبرة لما فى هذا العالم من الخير والشر والصحة والمرض ، والخالقة لها ، فيجب على البشر تعظيمها لأنها هي الآلهة المدبرة لهذا العالم ، ثم إنها تعبد الله سبحانه)

على هذا الدين ولد أبو إسحاق وعليه مات فى عصر الاسلامُ فيه مزدهر والكلمة العليا له ، والمكانة المكينة فى العالم لرجاله ، ولا فضل لمن لم يوله قلبه ، ويهب له نفسه ، وإن بقاءه على صابئته — على الرغم مما يحوطه ليدل أعظم الدلالة على أن الإسلام دين سمح ، أساسه العفو والأمر بالعرف ، والإعراض عن المشركين دون أن يصيبهم أذى ، أو ينالهم حيف ، أو تحل بهم نقمة مخلوق ؛ لأنه دين العقل والحجة والمنطق والموعظة الحسنة ، ولو لا تسامح ذلك الدين القويم ما وجد مثل الصابئ كنفاً يلجأ إليه أو وزراً يحميه ، فكيف وقد عاشر الخلفاء والأمراء والملوك والوزراء ؟ وكذلك عاش أمثاله فى رغد ورفهية ؛ عاشوا موفورى الكرامة مرفوعى الرءوس مجدودى الحياة ؛ ولقد بُصِّر أبو إسحاق بالدين الإسلامى ورُغِّب فى الاسلام وأُلِّف قلبه ، وأجزل له من أجل ذلك ، فلم يهد الله قلبه للإيمان ؛ لأنا لا نهدى من نحب ، ولكن الله يهدى من يشاء ؛ لذلك لم يصخ بسمعه إلى دعوة اليقين والداعون إليها هم سادته ومواليه وأرباب نعمته ومالكو زمام أمره إن شاءوا رفعوه وأعزوه ، وإن أرادوا وضعوه وأذلوه . ولقد حدث التاريخ أن عز الدولة بختيار عرض عليه الوزارة على أن يسلم ، فأباها مفضلاً أن يبقى على دين آبائه الغابرين ؛ وإن وفاءه لملته ، وإخلاصه لنحلته لمصدر عجب لمن أراد العجب ؛ إذ لم يعرف عنه أنه ارتكب أمراً حرم عليه ، ولا جاء وزراً نهى عنه شرعه . ويروى المؤرخون أنه حضر مائدة للوزير المهلبي بن أبي صفرة ، وكان أبو إسحاق من خلانه الأدنين وخلصائه المصطفين ، فامتنع عن لون من ألوان الطعام محرم لدى الصابئة ، فقال له المهلبى : لا تبرد وكل معنا من هذه الباقلاء . فقال : أيها الوزير لا أريد أن أعصى الله فى مأكول ، فكان موفقاً في إجابته مسدداً في مُجانته . وروي أن عز الدولة بختيار بذل له ألف دينار على أن يأكل الفول

(١) الجزء الثانى من المعجم الطبعة الأخيرة ص ٢٦

وهو مما يحرم أكله أيضاً في دينه ، فرفضها متعففاً وهو الفقير إليها فأين منه أولئك الذين لا يتناهون عن منكرات يجترمونها ، ولا يتعففون عن محرمات يجترحونها غير مبالين ما ينتظرهم من حساب شديد وعذاب أليم ؟ وآية نبله أنه مع تعصبه هذا وتشدده وتزمته في دينه كان جميل العشرة للمسلمين صادق الإخاء كريم الصنيع حسن المعونة ، فكان يصوم رمضان لا تحنثاً بل تجملاً ، ويحفظ القرآن الكريم إجلالا له وعرفاناً بخطره ؛ لأنه رأى فيه مهبط الحكمة ومصدر البلاغة ، ومشرع اللسن والفصاحة ، فظهر أثر ذلك على أسلة يراعه ، وجرى على عذبة لسانه . وإليك ما يقوله أبو منصور الثعالبي في يتيمته عنه في تلك الناحية من خلقه وأدبه : « كان يعاشر المسلمين أحسن عشرة ، ويخدم الأكابر أرفع خدمة ، ويساعدهم على صيام شهر رمضان ، ويحفظ القرآن حفظاً يدور على طرف لسانه وسن قلمه ، وبرهان ذلك ما أوردته في كتاب الاقتباس من فصوله التي أحسن فيها كل الإحسان وحلاها بآي من القرآن)

ومن آيات وفائه ونبله أنه كان صديقاً ودوداً للشريف الرضي حتى اتهم بأنه يدعو له بالخلافة ، ويتمنى أن ينال مطمحه ويدرك مآربه ، وهو لم ينف ذلك عن نفسه ، بل إنه جهر به في قصيدة بعث بها إلى الشريف ، وهو لابد عالم بوقعها في نفوس أعدائه وحاسديه ، ولكنه لم يعبأ بما قد يصيبه بسببها ، لأنه أسير وجدانه ، وينطق إذ ينطق عن شعوره وإحساسه ، وما عليه إذ يرضيهما من بأس ، وهذا بعض ما قاله فيها :

أبا حسن لي في الرجال فراسة ... تعودتُ منها أن تقول فتصدقا
وقد خبّرتني عنك أنك ماجد ... سترقي من العلياء أبعد مرتقى
فوفّيتك التعظيم قبل أوانه ... وقلتُ أطال الله للسيد البقا
وأضمرت منه لفظة لم أبح بها ... إلى أن أرى إطلاقها لي مطلقا
فإن عشت أو إن مت فاذكر بشارتي
وأوجبْ بها حقاً عليك محققاً
وكن لي في الأولاد والأهل حافظاً
إذا ما اطمأن الجنب في موضع البقا

ولقد كان مع هذا محببا إلى الخلفاء والوزراء ، كلهم يطلب يده ويبتغي أن يقصر خدمته عليه دون غيره ، فمنهم من كان يسلك إلى إربته طريق البذل والرفد ، ومنهم من كان يطرق سبيل العقوبة والحقد ، فعاش محسداً إن رضى عنه وزير غضب عليه آخر ، وإن صفا له أمير جفاه خليفة . وممن اصطفاه ولم يجتوه وأحبه ولم يجفه الصاحب بن عباد ، ولعل الأدب هو الذي قرب بين نفسيهما وألف بين روحيهما ، فلم تقع بينهما نبوة ، ولا لحق صداقتهما جفوة ، فكثيراً ما بثه شكواه ، واستمطر غيثه وكان موضع نجواه ، ولقد كان أول أمره يأنف أن يتصل بالصاحب مادحا أو أن يطلب صلته مانحا ؛ حتى استوزر الصاحب فنزل عن أنفته وقنع من مطاولته بمصاحبته ، وكان الصاحب يعجب به أشد الإعجاب ، ويراه أحد أفذاذ الأدب ، فقد حدّث عنه أنه كان يقول: « كتاب الدنيا وبلغاء العصر أربعة : الأستاذ ابن العميد ، وأبو القاسم عبد العزيز بن يوسف ، وأبو إسحاق الصابي ولو شئت لذكرت الرابع » وكان يعني بالرابع نفسه . ويقول الثعالبي « وأما الترجيح بين هذين الصدرين أعني الصاحب والصابي في الكتابة فقد خاض فيه الخائضون ، وأخب فيه المخبون ، ومن أشف ما سمعته في ذلك أن الصاحب كان يكتب كما يريد ، وأبو إسحاق كان يكتب كما يؤمر ، وبين الحالين بون بعيد» وأحسب أنه يقصد تفضيل الصابي لأن الذي يستطيع أن يكتب ما يراد منه ويؤمر به لا شك مستطيع أن يكتب ما يريده هو ، وعلى هذا فقد برع في الناحيتين وفاق صاحبه فيما قصر فيه ، وإلى أمد قاصد نكمل عنه الحديث متناولين جزءاً آخر من تاريخه الأدبي

عبد العظيم علي قناوي

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعى

١٨٨٠ - ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

— ١٦ —

« لا يصح الحب بين اثنين إلا إذا أمكن لأحدهما أن يقول للآخر : يا أنا ... ومن هذه الناحية كان البغض بين الحبيبين — حين يقع — أعنف ما فى الخصومة ، إذ هو تقاتل روحين على تحليل أجزائهما الممتزجة . وأكبر خصيمين فى عالم النفس (هما) متحابان تباغضا ... » (الرافعى)

السحاب الأحمر

ترى ماذا كتبت إليه صاحبته بعد ما قرأت رسائل الأحزان فأثارت نفسه بعد هدأتها وردّته من الغيظ والحنق إلى أن يقول : « يا هذه لا أدرى ما تقولين ؛ ولكن الحقيقة التى أعرفها : أن نفس المرأة إذا اتسخت كان كلامها فى حاجة إلى أن يغسل بالماء والصابون وهيهات .. ! » ويقول : « يجب على الدارس حين تعلّم الفتاة كيف تتكلم أن تعلمها أيضاً كيف تسكت عن بعض كلامها » ؟

مَن لى بأن أعرف ما كان وقْع رسائل الأحزان فى نفسها وما ردّتْ به ؟

إنه يتحدث فى السحاب الأحمر عن التهمة والظنون ، والكلام الذى لا يغسله الماء والصابون ، والنجمة الهاوية ، وخداع النظر فى الحب ، وفساد الرأى فى الهوى ، وطيش القلب فى الاستسلام ، ثم ... ثم يحاول أن يعتذر ... !

هنا الحلقة المفقودة فى تاريخ هذا الحب ، فلست أدعى المعرفة ؛ ولقد كنت مع الرافعى مرة فى مكتبه وبيننا السحاب الأحمر يقرأ لى بعض فصوله ، فأشرت إليه عند فقرة من الكلام ليجيبنى عن سؤال يكشف عن شىء من خبرها ومن خبره ؛ فوضع الكتاب إلى جانبه وحدّق فىّ طويلاً ثم سكت ، وسبحتْ خواطره إلى عالم بعيد ، وراحت أصابعه تعبث بما على المكتب من أشيائه ، ثم قال : « أرأيت القلم الذى تراءى لى السحاب الأحمر فى نِصابه بين عينىّ والمصباح ... ؟ » ثم دس يده فى درج المكتب فأخرجه ودفعه إلىّ وهو يقول : « ضع النصاب بين عينيك والمصباح وانظر . ألست ترى سحاباً يترقرق بالدم كأن قلباً جريحاً ينزف ؟ فى شعاعة هذا النور تراءت لى هذه الخواطر التى تقرؤها فى السحاب الأحمر ... » ثم عاد إلى الصمت ولم أعد إلى السؤال ...

***

أحسب أن الرافعى حين أنشأ السحاب الأحمر كان فى حالة عصبية قلقة لست أعرف مأتاها ومردّها ، ولكن فصول الكتاب تتحدث عن خبرها فى شىء من الغموض والإبهام

لقد أنشأ الرافعى رسائل الأحزان ليكون رسالة إليها يتحدث فيها عن حبه وآلامه ؛ ولست أشك أن صاحبته حين تأدّتْ إليها رسائله قد فهمت ما يعنيه وعرفتْ ذات صدره ، وأحسبها — وهى الأديبة الشاعرة — قد سرّها أن تكون هى فَلَك الوحى لما فى رسائل الأحزان من كل معنى جميل . أفتراها قد بدا لها أن تهيجه بالدلال والإغراء وقسوة العتب وتصنُّع الغضب لتفتنه وتزيده وحياً وشعراً وحكمة ... ؟

إن كانت هذه رسالتها إليه فما أراها قد بلغت بها إلا أن هاجت كبرياءه وأثارت نفسه ، فكتب كتابه ولكن لغير ما أرادت وما قصدت إليه ...

***

يقوم السحاب الأحمر على سبب واحد ، يدور حول فلسفة البغض ، وطيش الحب ، ولؤم المرأة ... !

على أن كل ما فيه لا يشير إلا لمعنى واحد : هو أن قلباً وقع فى أسر الحب يحاول الفكاك فلا يستطيعه ؛ فما يملك إلا أن يصيح بملء ما فيه : إننى أبغضك أيتها ... أيتها المحبوبة !

وكما يفزع الشخص إذا حزبه أمره إلى أصدقائه يستعينهم ويستلهمهم الرأى فى بلواه ، كذلك فزع الرافعى فى السحاب الأحمر ، ولكن إلى أصدقاء من غير عالمه يستعينهم على أمره ؛ فهذا صديقه الشيخ على صاحب المساكين ، وهذا صفيُّه وصاحب نشأته الشيخ أحمد الرافعى ؛ وذلك أستاذه ومثله العالى

فى دينه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ؛ وهذه أم ضل ولداها الحبيبان ، وتلك زوج يفارقها زوجها الحبيب إلى السجن ؛ وهذا ، وهذه ، وتلك ، يحدثونه جميعاً حديثهم عن الحب فى رأى العين ، وفى رأى القلب ، وفى رأى العقل ، ويحدثهم حديثه ... فما تلمح من أحاديث هؤلاء جميعاً إلا أن الرافعى فى جهاد عنيف بين قلبه وعقله ، يريد أن يثبت الغلبة لعقله على هواه ليخرج من أمر صاحبته برأيه وفكره وكبريائه ، ثم لاتكون الغلبة فى النهاية إلا للحب على رأيه وفكره وكبريائه

على أن كتاب السحاب الأحمر ليس كله خالصاً لصاحبته وإن يكن من وحيها ؛ ذلك أن نسقه العجيب ، ومحاولة الرافعى به أن ينصرف عنها ، قد شرع له فى الكتاب مسالكَ من القول لم تكن مما يقتضيه ما بينه وبين صاحبته

* * *

فى الفصل الأول من السحاب الأحمر ، يتحدث الرافعى عن فتاة « عرفها قديماً فى ربوة من لبنان ، ينتهى الوصف إلى جمالها ثم يقف ! » وهو يعنى صاحبته التى أملتْ عليه «حديث القمر» وإنك لتقرأ حديثه عنها ، ووصفه لها ، وما كان من أثرها فى نفسه ؛ فتسأل نفسك : أى شئ ردَّه إلى هذه الذكرى البعيدة فأيقظها فى نفسه بعد اثنتى عشرة سنة محا الزمان بها فى قلبه وأثبت ؟ فلا تلبث أن تجد الجواب فى الأسطر الأخيرة من هذا الفصل :

« إن من النساء ما يُفهَم ثم يعلو فى معانيه الجميلة إلى أن يمتنع ، ومن النساء ما يُفهَم ثم يَسفل فى معانيه الخسيسة إلى أن يبتذل ...

« إن من المرأة ما يُحَبّ إلى أن يلتحق بالإيمان ، ومن المرأة ما يُكرَه إلى أن يلتحق بالكفر ...

« من المرأة حلو لذيذ يؤكل منه بلا شبع ، ومن المرأة مُرّ كريه يشبع منه بلا أكل ... ! »

أتراه بهذا يوازن بين واحدة وواحدة ، ليقول لهذه : إن تلك كانت خيراً منك ؟ وهل تحسبه كان يعتقد ذلك ؟ أما أنا فأعرف من أخلاق الرافعى أن هذا معنى لم يكن يعنيه ، ولكنها مساومة فى الحب يريد بها أن يهيج غيرة صاحبته ليزدّها إليه ، أو أنه أراد أن ينقذ كبرياءه فيزعم لصاحبته أنه لم يكن يعنيها برسائل الأحزان ، لأن هنالك أخرى ...

* * *

وتقرأ « النجمة الهاوية » فى الفصل الثانى ، فتسمعه يقول : « تمّ آمالُنا حين لا نؤمّل ! » فما تشك أن هناك رسالة إليها ، رسالة يمليها الحب المغيظ المحنق ، يحاول فيها أن يوهمها أنها لم تعد شيئاً فى نفسه ، وأنه قد تمت آماله واستراحت نفسه فليس له فيها أمل ولا يتعلق بها رجاء ؛ ثم يستطرد فى معانى البغض والهجر والقطيعة بأسلوب قاسٍ عنيف ، ولكن قلبه العاشق المفتون ينبض فى كلماته ؛ فما ينتهى الفصل حتى يستعلن حبه من وراء كلمات البغض وهو يقول : « أشأم النساء على نفسها من لا تُحِب ولا تُبغِض ، وأشأمهن على الناس من إذا عدّتْ مبغضيها لا تَعُدّ إلا الذين أحبوها ... ! » وإننى لأعرف الرافعى وأستمع إلى همسات قلبه ، فهل ترى ترجمة هذه العبارة إلا أنه يقول : « إننى أحبك يا أشأم النساء ! » ؟

اقرأ فى آخر هذا الفصل الصاخب قوله :

يامن على الحب ينسانا ونذكره	لسوف تذكرنا يوماً وننسا كا
إن الظلام الذى يجلوك يا قمر	له صباح متى تدركه أخفا كا

* * *

ويتحدث فى الفصل الثالث عن السجين تحمله عربة السجناء إلى قضائه ، وزوجته التى تحبه تشيعه بنظراتها الجازعة ؛ فتعرف من وصفه لساعة الفراق بين الزوجين الحبيبين ، أىّ خاطرة فى الحب ألهمته هذا الفصل البديع ، وكأنك تسمع الرافعى يتحدث فيه عن نفسه مما فعل به الفراق : « ما الفراق إلا أن تشعر الأرواح المفارقة أحبتَها بمسّ الفناء لأن أرواحاً أخرى فارقتها ؛ ففي الموت يُمسّ وجودُنا ليتحطم ، وفى الفراق يُمسّ ليلتوى ؛ وكأن الذى يقبض الروح فى كفه حين موتها ، هو الذي يلمسها عند الفراق بأطراف أصابعه !

« وإنما الحبيب وجود حبيبه لأن فيه عواطفه ؛ فعند الفراق تنتزع قطعة من وجودنا فنرجع باكين ونجلس فى كل مكان محزونين كأن فى القلوب معنى من المناحة على معنى من الموت ..

« ... ترى العمر يتسلل يوماً فيوماً ولا نشعر به ، ولكن متى

فارقنا من محبهم نبه القلب فينا بغتة معنى الزمن الراحل ، فكان من الفراق على نفوسنا انفجار كتطاير عدة سنين من الحياة ... »

* * *

ويتحدث فى الفصلين الرابع والخامس عن تجارة الحب(١) ، وعن المنافق ، فتلمح من وراء حديثه معنى لا يريد أن يفصح عنه ، وإنه لبسبب مما كان بينه وبين صاحبته ؛ أفتراه يشير به إلى شىء من أسباب القطيعة ؟

وفى الفصل السادس يتحدث عن حب الأم في قصة والدة ضل ولداها الصغيران ثم اهتدت إليهما :

« الحب ! ما الحب إلا لهفة تهدر هديرها فى الدم ، وما خلقت لهفة الحب أول ما خلقت إلا فى قلب الأم على طفلها ... حب الأم فى التسمية كالشجرة : تغرس من عود ضعيف ، ثم لا تزال بها الفصول وآثارها ، ولا تزال تتمكن بجذورها وتمتد بفروعها حتى تكتمل شجرة بعد أن تفنى عداد أوراقها ليالىَ وأياماً . وحب العاشقين كالثمرة : ما أسرع ما تنبت ، وما أسرع ما تنضج ، وما أسرع ما تقطف ؛ ولكنها تُنسى الشفاهَ التى تذوقها ذلك التاريخَ الطويل من عمل الأرض والشمس والماء فى الشجرة القائمة

« لا لذة فى الشجرة ولكنها مع ذلك هى الباقية وهى المنتجة ، ولا بقاء للثمرة ولكنها على ذلك هى الحلوة وهى اللذيذة وهى المنفردة باسمها

« وهكذا الرجل أغواه الشيطان فى السماء بثمرة فنسى الله حيناً ، ويغويه الحب فى الأرض بثمرة أخرى فينسى معها الأم أحياناً ! »

* * *

وتراه فى الفصول الثلاثة الباقية كأنما يحاول أن يروض نفسه على السلوان ، ويقنعها بأن الحب ليس هو رجولة الرجل ، وليس هو إنسانية الانسان ، وليس هو كل مافى الحياة من لذة ومتاع ، في كلام يجريه على ألسنة شيوخه وأصدقائه : الشيخ على ، والشيخ أحمد ، والشيخ محمد عبده ؛ يحاورهم ويحاورونه ، فتستمع فى هذا الحوار إلى النجوى بينه وبين نفسه ، وإلى الصراع بين عقله وهواه

إن الرافعى بكبريائه وخلقه ودينه واعتداده بنفسه ، لم يُخلق للحب ! ولكنه أحب ؛ فمن ذلك كان حبه سلسلة من الآلام ، وصراعاً دائماً بين طبيعته التى هو بها هو ، وفطرته التى هو بها إنسان . وإنك لتلمح هذا الصراع الدائم فى كل فصل من فصول السحاب الأحمر

* * *

وفى كتاب السحاب الأحمر ، تقرأ رأى الرافعى فى القضاء والقدر ؛ وإنه ليشعرك برأيه ذلك مقدارَ ما فعل به الحب وما فلّ من إرادته ، فتراه يؤمن بأن الإنسان فى دنياه ليس له كسبٌ ولا اختيار فيما يعمل ، ولكنه قضاء مقدور عليه منذ الأزل لا طاقة له على الفكاك منه ؛ وإنه على ذلك لموقن بأن لله حكمة فيما قضى وقدر وإن دقت حكمته على الأفهام :

« ألا يا ماء البحر ، ما أنت على أرض من الملح ؛ فماذا أصبحت زُعاقاً لا تحلو ولا تُساغ ولا تُشرب ؟ إنك لستَ على أرض من الملح ولكنك يا ماء البحر ذابت فيك الحكمة المِلْحة ... ! »(١)

* * *

قلت فى مقالى السابق : إن رسائل الأحزان عند أكثر قراء العربية هو شىء من البيان المصنوع تكلّفه كاتبه ليحاول به أن يستحدث فنّاً فى العربية لم يوفق إلى تجويده ... لأنه بقية قصة لم تنشر معه — هى قصة غرام الرافعى — فجاء كما تأكل النار كتاباً من عيون الكتب فما تبقى منه إلا على الهامش والتعليق وصلبُ الكتاب رماد فى بقايا النار

أما السحاب الأحمر فهو كتاب كامل . احذف منه فصلا أو فصلين فى أوله ، وشيئاً من فضول القول فى سائره ، تجد فناً فى العربية لا يقدر عليه إلا الرافعى ، فجرّده من قصته أو انسبه إليها فانك واجد فيه أدباً يستحق الخلود ، وبياناً يزهى على البيان ، وشعراً وحكمة ما زال الأدباء يدورون عليها حتى وجدوها فى أدب الرافعى

* * *

فى رسائل الأحزان أراد الرافعى أن تعرف صاحبته من حاله ومن خبره ما أراد ، فأغراها بالترفع والدلال عليه . وفى السحاب

(١) هذا الفصل فى السحاب الأحمر بعنوان « الربيطة » كتبه الرافعى عن صديق من خريجى جامعات أوربا ، هو الدكتور فلان ، وكان فى صدر شبابه — كأكثر واردات أوربا — زيفا فى الدين ، وزيفا فى الخلق ، وزيفا فى الرجولة ؛ على أنه الآن من أكثر المسلمين حمية لدينه وحفاظاً على تراث قومه ؛ وله مقالات فى الاسلام وفى الرد على بعض جهال المستشرقين تشفع له يوم الدين

(١) إلى الآنسة أ . ش : أن تقرأ هذه الفقرة من كلام الرافعى ؛ فان فيها الجواب عن بعض سؤالها ، وشفاها الله !

فلسفة التربيـــة

كما يراها فلاسفة الغرب

للأستاذ محمد حسن ظاظا

— ٢ —

« الفلسفة بوجه عام هى المحاولة المتكررة للوصول إلى معرفة منتظمة مفهومة لصور وعلاقة ومعنى ومحول الأشياء »
« بولزن Paulsen »

رأيت فى المقال السابق ذلك « التقدير النزيه » الذى تقوّم به الفلسفة عملية التربية ، وتبينت إلى أى حد ترتفع التربية بذلك « التقدير » وتسمو على سائر التجارب الإنسانية . وأحب اليوم أن أنتقل بك إلى العلاقة بين الفلسفة والتربية ، وإلى فحوى فلسفة التربية لدى الإنجليز والأمريكيين على الخصوص ، تمهيداً للكلام على مسائل أخرى تختص بأغراض التربية ومنهجها ، وتطبيقات العلم والديمقراطية عليها

العلاقة بين الفلسفة والتربيـة قوية إلى أبعد حد . بل إن « جون ديوى » الفيلسوف الأمريكى الذى يحمل لواء التربية فى هذا العصر يذهب إلى القول بأن الفلسفة اليونانية — وهى أول فلسفة دقيقة معروفة — لم تنشأ إلا من ضغط مسائل التربية على عقول المفكرين . وإذن فلم يكن « الطبيعيون الأولون » عنده إلا فصلا فى تاريخ العلم ! أما السفسطائيون وسقراط ، فأولئك هم الذين اضطرتهم شئون التربية فى عهدهم إلى أن « يتفلسفوا » ! فكان لنا منهم كلام فى التربية تأدى بهم إلى كلام فى الفلسفة ! !

ومهما يكن من أمر هذه المبالغة الظاهرة فى كلام « ديوي » فلا شك أن التربية لا تستطيع أن تستغنى قط عن الفلسفة ، لا فى غاياتها ولا فى تقدير وربط نتائج علومها الكثيرة بعضها ببعض . بل نحن إذا نظرنا فى مسائل الفلسفة الكبرى وجدنا أن أغلبها يقوم محوراً لعملية التربية ذاتها (١)

ولقـد كانت الفلسفة إلى ما قبل « العلم التجريبي » مجرد نظريات ومبادئ تخوض فى متاهات ميتافيزيكية كثيرة . أما اليوم بعد أن نجح هذا العلم فى اقناع العالم بنجاحه وجدارته ، وبعد أن اتجهت أمريكا على الخصوص اتجاهاً « عملياً » فى فهم الكون وتقدير القيم المختلفة للموجودات — فقد أصبحت (الفلسفة) تسير فى التربية على الضوء الذى يبعثه العلم ولا تكاد تميل عنه إلا قليلا ، وبالأحرى هى كذلك لدى (جون ديوى) ومدرسته . فهى كما يقولون لا تستطيع أن تفهم الوجود بأكثر مما يسمح به الواقع المحدود !! وهى « فى التربية » تأخذ ذلك « الواقع المحدود » من علوم الحياة ، ووظائف الأعضاء ، والنفس ، والاجتماع ، وتاريخ الثقافة والسياسة والتربية والفن والدين ، ثم تـكون منه نظرة كلية فيها شرح وتفسير وتقويم وتشريع !

وإذن ففلسفة التربية فى هذا المذهب لا تكاد تعدو أن تكون النظرية العامة التى تجد تطبيقاتها فى عملية التربية بجميع نواحيها ذلك أنها تعالج التربية كوظيفة ضرورية غير منفصلة عن الحياة بحكم طبيعة الحياة نفسها ، وتنقد وتشرح الطرق والمواد المستعملة فى هذه العملية على أساس تلك الوظيفة الآنفة ، وتمدنا بالأصول التى تجعل التربية فعالة ، وتوضح المبادىء التى تنفث الحياة فى مصالح الجماعة والتى تبرر النظام القائم أو لا تبرره ، كما تعطى الجماعة ذاتها شعوراً شاملا قوياً بمعنى الأساليب المختلفة التى تباشرها فى تدريب أعضائها ، وبأساس هذه الأساليب وقيمتها

(١) فمثلا العلاقة بين الروح والجسم ، وبين العلم والأخلاق ، وبين الفرد والجماعة ، ومسألة المعرفة ذاتها و ... الخ كل ذلك مما تتناوله الفلسفة والتربية معاً .

الأحمر حاول أن يشعرها أنه قد فرغ من أمرها وفرغت من أمره فما لها عنده إلا البغض والإهمال ، وما له عنـدها إلا اللهفة على ما كان من أيامه . أفتراه فى السحاب الأحمر قد بلغ ما أراد ؟

هيهات أن يخفى الهوى !

استمع إليه يحاول أن يهيج فيها الغيرة ويبعث اللهفة ويوقظ الحنين ويورّث البغضاء ويثير الندم ؛ فلا يكاد يبلغ آخر الرسالة حتى ينسى ما قصد إليه ليدع لقلبه أن يقول :

وبلى على متـــدلّـل ما تنقضى عنى فنونهْ
كيف السُّلُوُّ وفى فؤا دى لا تفارقنى عيونهْ ؟!

رحمك الله يا صديق !

« شبرا » محمد سعيد العريان

(*) إلى (دمشق) : إن صاحبة الرافعى هى هى التى عرفت

ولئن قال قائل إن التفكير غالباً ما يولى هارباً تحت ضغط الحوادث تاركا العمل للعاطفة ، أو الانفعال ، أو الضرورة الغالبة بحيث أنا لا نستطيع دائماً « التفلسف » فى أساليب حياتنا : فالجواب هو أن التفكير لا يزال بالرغم من ذلك الأداة الوحيدة التى تخرجنا من الأزمات بما يقدمه من حلول ممكنة ، ووسائل محتملة ، ثم هو وإن كان لا يخلق قيماً جديدة فهو على كل حال يمير بين القيم المختلفة ، ويقدم لنا تلك التى توصلنا أكثر من غيرها إلى غايتنا

وإذن فالتربية القائمة على غير فلسفة تسندها تكون كالسارى بالليل من غير دليل ، والتربية القائمة على فلسفة خاطئة مصيرها الفشل المحتوم ...

والأمر فى الفرد والمجتمع على السواء . فلكل فرد فلسفته الخاصة فى الحياة . ولكل جيل أو مجتمع نظريته العامة التى يطبقها فى سلوكه ؛ وعلى قدر دقة هذه النظريه وصحتها يكون النجاح أو الفشل ، والسعادة أو الشقاء (١)

كلمة فلسفة التربية الحديثة فى اتجاهات اليوم

وإذا كان العصر الحاضر يمتاز بثلاثة اتجاهات أساسية هى : الديموقراطيـة ، والصناعة والتجارة ، والعلم التجربى ، فإن الأستاذ « جون ديوى » عند ما يكتب عن « فلسفة التربية » (فى دائرة معارف التعليم للأستاذ منرو) لا يكاد يخرج عن هذه الاتجاهات الثلاثة . فنراه من حيث الاتجاه الأول (الديموقراطية) ينادى بتعليم الجميع وبتساويهم فى فرصة إظهار كفايتهم الخاصة حتى يمسك فخ التعليم بالذكاء والنبوغ على نحو تعبير « ويلز » القصصى الفيلسوف ، كما نراه ينادي باحترام الفرد ولكن على أن يؤدى واجبه فى المجتمع وهو راض مطمئن

وهو من حيث الاتجاه الثانى « الصناعة والتجارة » يدعو إلى ضرورة إشراك العمل مع النظر فى التربية ، وإلى بث روح التعاون بين الطبقات ، وإلى العناية بعلوم الطبيعة وعدم الافراط فى التخصص الذي يجعل من الآلة إلهاً جباراً . هذا إلى جانب غرس الذوق السليم ، ومحاربة التبذل والاسفاف والترف المقيت وإضاعة الفراغ فى غير متعة بريئة ، وإلى جانب التحذير الدائم من عواقب التعسفات الرأسمالية

أما من حيث الاتجاه الثالث (اتجاه العلم التجربى) فنراه يلح فى نبذ تلك « السلبية » البغيضة التى قد أوقفنا وما زلنا نوقف فيها الطفل إزاء عملية المعرفة ، ويدعو بقوة إلى جعل التعليم عملية (كشف) يدرب فيها الطفل حواسه وقواه العقلية ويمضي فيها كما سيمضى غداً فى الحياة ، فيفترض الفروض أمام المشكلات ويجرب ويحقق آناً بنفسه وآناً بإرشاد الأستاذ ، ذلك إلى حصر الدراسة في المواد التى يحتاج إليها العصر الراهن من ناحية ، والكمال الانسانى من ناحية أخرى .

« يتبع »

محمد حسن ظاظا
مدرس الفلسفة بشبرا الثانوية الأميرية

---

(١) فمثلا تستند الفاشستية فى إيطاليا إلى فلسفة هيجل Hegel التى تؤدى إلى جعل سلطة الحكومة مطلقة . ويذيع هذه الفلسفة فى إيطاليا Georanni Gentile (أنظر كتاب السير بربى Epucation - its Dada and First principles)

« ويقول الأستاذ وليم جيمس في أول كتابه (البراجماتزم) نقلا عن شسترتون « هناك كثيرون ــ وأنا واحد منهم ــ يعتقدون أن أهم شيء فى الرجل هو نظرته للكون ... ولا شك أن أهم ما يجب معرفته عن عدونا هو فلسفته لا عدده وعدته » أنظر كتاب الأستاذين (روس وفنى) فى فلسفة التربية الاجتماعية

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

٣١٨ — ما أشبه فروع الإحسان بأصوله

البحترى : قال ابراهيم بن الحسن بن سهل : كان المأمون يتعصب للأوائل من الشعراء ، ويقول : انقضى الشعر مع ملك بنى أمية . وكان عمى الفضل بن سهل يقول له : الأوائل حجة وأصول ، وهؤلاء أحسن تفريعا . إلى أن أنشده يوماً عبد الله بن أيوب التيمى شعراً مدحه فيه ، فلما بلغ قوله :

ترى ظاهر المأمون أحسن ظاهر ... وأحسنُ منه ما أسرّ وأضمرا

يناجى له نفسا تَريع بهمة ... إلى كل معروف وقلبا مطهرا (١)

ويخشع إكباراً له كلُّ ناظر ... ويأبى لخوف الله أن يتكبرا

فقال للفضل : ما بعد هذا مدح ، وما أشبه فروع الإحسان بأصوله !

٣١٩ — أشعر الشعراء

فى (المثل السائر) لابن الأثير : يُروى عن بشار أنه وصف نفسه بجودة الشعر والتقدم على غيره ، فقيل له : ولمَ ذاك ؟ فقال: لأنى نظمت اثنى عشرة (٢) الفَ قصيدة وما تخلو واحدة منهن من بيت واحد جيد ، فيكون لى اثنا عشر الف بيت . وقد تأملت هذا القول فوجدته على بشار لا له ، لأن (باقلا) لو نظم قصيداً ما خلا من بيت واحد جيد . وقد وصل إلىّ ما بأيدى الناس من شعره فما وجدته بتلك الغاية التى ادعاها لكن وجدت جيده قليلا بالنسبة إلى رديئه ، وتندر له الأبيات اليسيرة . وبلغنى عن الأصمعي وأبى عبيدة وغيرهما أنهم قالوا هو أشعر الشعراء المحدثين قاطبة ، وهم عندى معذورون لأنهم ما وقفوا على معانى أبى تمام وأبى الطيب ولا على ديباجة البحترى . وهذ الموضع لا يستفتى فيه علماء العربية ، وإنما يستفتى فيه كاتب بليغ (٣) أو شاعر مفلق ، فإن أهل كل علم أعلم به . على أن علم البيان من الفصاحة والبلاغة محبوب إلى الناس قاطبة ؛ وما من أحد إلا يحب أن يتكلم فيه حتى إنى رأيت أجلاف العامة وأغتام (١) الأجناس كلهم يخوضون في فن الكتابة والشعر ، ويأتون بكل مضحكة . والمذهب عندى فى تفضيل الشعراء أن الفرزدق وجريراً والأخطل أشعر الشعراء أولا وآخراً ، ومن وقف على دواوينهم علم ما أشرت إليه . وأشعر من هؤلاء عندى الثلاثة المتأخرون وهم أبو تمام والبحترى والمتنبى فإن هؤلاء الثلاثة لا يدانيهم مدان فى طبقة الشعراء ؛ أما أبو تمام وأبو الطيب فربا المعاني ، وأما أبو عبادة فرب الألفاظ فى ديباجتها وسبكها .

(١) تريع : ترجع ، تعود ، تنقاد . فى الأساس : وعظته فأبى أن يريع

(٢) الألف مذكر وتأنيث العدد للقصيدة ، وهى رواية (الأغانى)

(٣) مثل ضياء الدين بن الأثير ...

٣٢٠ — الشعر المغسول

فى (الموشح فى مآخذ العلماء على الشعراء) لأبى عبيد الله المرزباني : قال البحترى : دعانى على بن الجهم فمضيت إليه ، وأفضنا فى أشعار المحدثين إلى أن ذكرنا أشجع السُّلَمى . فقال لى : إنه (يُخلى) وأعادها مرات ولم أفهمها ، وأنفت أن أسأله عن معناها ، فلما انصرفت أفكرت فى الكلمة ، ونظرت فى شعر أشجع فاذا هو ربما مرت له الأبيات مغسولة (٢) ، ليس فيها بيت رائع ، وإذا هو يريد هذا بعينه : إنه يعمل الأبيات ولا تصيب فيها بيتاً نادراً كما أن الرامى إذا لم يصب من رشقه كله الغرض بشيء قيل (أخلى (٣)) فجعل ذلك قياساً ، وكان على بن الجهم عالماً بالشعر

٣٢١ — وإنما لمعاد تعشق الصور

أبو القاسم غانم بن أبى العلاء الأصبهانى :

(١) الأغتم : الأعجم وهو من لا يفصح شيئاً ، الغتمة العجمة فى المنطق (التاج ، الأساس)

(٢) الأساس : كلام فلان مغسول ليس بمعسول ، كما تقول : عريان وساذج للذى لا نكت فيه قائله كأنما غسل من النكت والفقر غسلا أو من حقه أن يغسل ويطمس ، ومنه قولهم : على وجه فلان غسلة إذا كان حسناً ولا ملح عليه ويقال في ضده : على وجهه حفلة

(٣) لم تذكر كتب اللغة مثل (اللسان والتاج) هذا الحرف بذاك المعنى ، وكم كلمات فاتت المعجمات !

قوم لو انهمُ ارتاضوا لمـــا قرضوا
أو أنهم شعروا بالنقص ما شعروا (١)
لا يحسن الشعر ما لم يُســترقّ له
حرّ الـكلام ، وتستخدمْ له الفـكَر
أنظرْ تجدْ صور الأشعار واحدة وإنمـا لِمعانٍ تعشق الصور

٣٢٢ — اختيار الوزن والقافية

قال الصاحب فى رسالتـه (الـكشف عن مساوئ شعر المتنبى) : كنت أقرأ على (الأستاذ الرئيس ابن العميد) شعر ابن المعتز متخيراً الأنفس فالأنفس ، فابتدأت قصيدة على المديد الأول (٢) ، فرسم تجاوزْها ، وقدَّرته يحفظها ولا يرضاها . فسألته عنها ، فقال : هذا الوزن لا يقع طلبه للمحدثين جيد الشعر . فتتبعت عدة قصائد على هذا الضرب فوجدتها فى نهاية الضعف . وسمعته (أيده الله) يقول : إن أكثر الشعراء ليس (٣) يدرون كيف يجب أن يوضع الشعر ، ويبتدأ النسج ، لأن حق الشاعر أن يتأمل الغرض الذى قصده ، والمعنى الذى اعتمده ، وينظر فى أىّ الأوزان يكون أحسن استمراراً ، ومع أى القوافى يحصل أجمل اطراداً ، فيركب مركباً لا يخشى انقطاعه والتياثه عليه

٣٢٣ — فلقى الله شبعان ريان دفيئا

قال أعرابى وهو يدعو الله بباب الـكعبة : اللهم ميتة كميتة أبى خارجة . فسألوه ، فقال : أكل بَذَجاً (٤) وشرب وطْباً (٥)

(١) (إنهم) بهمزة وصل للضرورة (ارتاضوا) راضه فهو مروض وقد ارتاض . (قرضوا) : قرض الشعر قاله ، وله قريض حسن لأن الشعر ذو تقاطيع أو سمي بالقريض الذي هو الجرة ... (الأساس) . (شعر به) كنصر وكرم والأولى هي الفصيحة : علم به وفطن ، وحكى اللحياني : شعر لـكذا إذا فطن له ، وشعر به بالفتح : عقله (التاج) . (شعر) كنصر وكرم شعراً قاله أو شعر كـكرم أجاده ، وهذا القول الذى ارتضاه الجماهير لأن (فعل) له دلالة على السجايا التى تنشأ عنها الاجادة ، وشعرت لفلان أى قلت له شعراً (التاج)

(٢) الحماسى :

فاسقنيها ياسواد بن عمرو إن جسمى بعد خالى لخل
فاعـلاتن فاعلن فاعـلاتن فاعـلاتن فاعلن فاعـلاتن

(٣) اسمها ضمير الشأن

(٤) البذج : الحمل ، ولد الضأن كالعتود من المعز

(٥) الوطب : سقاء اللبن ، الزق ، جمع القلة : أوطب والـكثير : وطاب وأوطاب

من اللبن ، وتروى من النبيذ (١) ، ونام فى الشمس فمات ؛ فلقى الله شبعان ريان دفيئا

٣٢٤ — طلعها كأنه رؤوس الشياطين

فى (الـكامل) : التشبيه جار كثير فى كلام العرب حتى لو قال قائل هو أكثر كلامهم لم يبعد . قال عز وجل وله المثل الأعلى : (الزجاجة كأنهـا كوكب درى) وقال : (طلعها كأنه رؤوس الشياطين) . وقد اعترض معترض من الجهلة الملحدين فى هـذه الآية فقال : إنما يمثل الغائب بالحاضر ، ورؤوس الشياطين لم نرها فكيف يقع التمثيل بها ؟ وهؤلاء فى هـذا القول كما قال الله : (بل كذّبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله) . وهـذه الآية قد جاء تفسيرها فى ضربين : أحدهما أن شجراً يقال له : (الأستن) منكر الصورة يقال لثمره : رؤوس الشياطين ، وزعم الأصمعى أن هذا الشجر يسمى الصوم (٢) . والقول الآخر — وهو الذى يسبق إلى القلب — : إن الله شنع رؤوس الشياطين فى قلوب العباد ، وكان ذلك أبلغ من المعاينة ، ثم مثل هذه الشجرة بما تنفر منه كل نفس (٣)

٣٢٥ — الا التنقل من حال الى حال

فى (تاريخ الطبرى) : قال أبو العتاهية : وجّه إلىّ المأمون يوماً فصرت إليه ، فألفيته مطرقاً مفكراً ، فأحجمت عن الدنو منه فى تلك الحال ، فرفع رأسه فنظر إلىّ ، وأشار بيده أن ادنُ فدنوت ، ثم أطرق ملياً ، ورفع رأسه فقال : يا أبا اسحق ، شأن النفس الملل وحُبُّ الاستطراف ، تأنس بالوحدة كما تأنس بالألفة . فقلت : أجل يا أمير المؤمنين ، ولى فى هذا بيت . قال : وما هو ؟ قلت :

لا يُصلح النفس إذ كانت مقسَّمَةً
إلا التنقّلُ من حال إلى حال

(١) في المحكم : إنما سمى نبيذاً لأن الذى يتخذه يأخذ تمراً أو زبيباً فينبذه فى وعاء أو سقاء عليه الماء ويتركه حتى يفور فيصير مسكراً ، والنبذ الطرح (التاج) ويقال للخمر المعتصر من العنب نبيذ كما يقال للنبيذ خمر (النهاية)   (٢) الصوم : شجر على شكل شخص الانسان

(٣) قال ابراهيم بن اسماعيل الكاتب لأبى عبيد : قال الله : (طلعها ...) وإنما يقع الوعد والايعاد بما قد عرف مثله وهذا لم يعرف فقال : إنما كلم الله العرب على قدر كلامهم أما سمعت قول امرىء القيس :

أيقتلنى والمشرفى مضاجعى ومسنونة زرق كأنياب أغوال

وهو لم ير الغول قط ولـكنهم لـما كان أمر الغول يهولهم أوعدوا به (نزهة الالباء للأنبارى) وقيل : كأنه رءوس حيات فان العرب تسمى بعض الحيات شيطاناً ؛ حية له عرف قبيح المنظر (اللسان)



رسالة الشعر



نكبة السيول

للسيد أحمد عبيد

« أيها الاخوان هلا عطفة تجبر الكسر وتحيي من غبر »

هجع السامر وانفضّ السمرْ وتوارى البدرُ والنجم استترْ
وسجا الليل فما من نَبْسةٍ بفم الليل إذِ الليلُ اعتكر
وخلا الأفق سوى من ومضةٍ تتجلى فيه آناً وتمرّ
والكرى يبعث أضغاث الرؤى زاخراتٍ بتهاويل الصوَر
غفَل الناسُ بها عن كونهم والرزايا راصداتٌ والغِيَر
هجعوا والمزنُ مرجوُّ الحيا والغوادي حافلاتٌ بالدِّرَر
فإذا السحبُ رُكامٌ مطبقٌ عابسُ الطلعة مرهوبُ النظر
وإذا السيلُ أتيٌّ ماردٌ عَرِمُ الطغيانِ مشهودُ الضرر
غادر السهلَ كبحرٍ مُزبِدٍ طَمّتِ الأمواج فيه فانفجر
قلّما مرّ على شيء ولم يمحُ من أعلامه كلَّ أثر
فأتى البنيانَ من آساسه وتعاطى كلَّ نفسٍ فعقر
لم ينَلْ من شرّه نَبْتٌ ولم ينجُ منه حيوانٌ أو بشر
والردى يدهق في دأمائه كأسَ موتٍ وهلاكٍ ما أمرّ
فترى الأشلاء تطفو فوقه زاهقاتِ الأنفس الطهرِ الغُرَر

* * *

رب طفلٍ أبصر السيلَ ولم يقوَ أن ينجوَ منه أو يفرّ
صاح يزجو نجدةً من أمه وأبيه وهما فيمن غمر
فعلا الجذعَ يُرجّي عنده نجوةً فانبتّ فيه وانكسر
وفتاةٍ طفلةٍ ناعمةٍ ذاتِ دلٍّ وعفافٍ وخفَر
عصف السيلُ بها فانهتكت وطواها في مطاويه القدر
وغنيٍّ كان مرموقَ السنا حاشداً نَدْباً كريمَ المعتصَر
تركته النكبة الكبرى لَقىً ينشُد العيشَ ويبكي من قبر

* * *

أيها الإخوان هلّا عطفةٌ تجبر الكسرَ وتحيي من غبَر(١)
أنفقوا مما تحبون فمن يفعلِ الخير يجدْه مُستطَر
ليس يغني الدمعُ في تسكابه عن بلاءٍ جلَّ أو خطبٍ أبرّ
أتبعوا سيلَ الحيا سيلَ الندى ينتعشْ بعضُ الذي كان عثر
واشكروا الله إذ أنجاكم بالجدا(٢) فالله يجزي من شكر
ليجُدْ ذو الفضل بالعفو(٣) ومن جادَ من جُهدٍ(٤) فقد أسنى وبرّ

(دمشق) **أحمد عبيد**

(١) غبر : بقي
(٢) الجدا : العطا
(٣) العفو : الزائد من المال ومنه قوله تعالى : (يسألونك ماذا ينفقون قل العفو)
(٤) الجهد : الشيء القليل يعيش به المقل على جهد العيش

لوحة الشاعر

للشاعر السودانى المرحوم التجانى يوسف بشير

الحسنُ - يهفو بجَفْنِهِ الوسنُ - كلُّ خبيء من سحره حسنُ
للحسن عندى وللهوى صورُ
وهى لعمرى وعمرُها غُرَرُ
ذخيرةٌ للفؤاد أَوْ أَشرُ
من الجمال الحبيبِ يُعتَصَر
يرقد فى حِجْرِها فتًى أَثِرُ يفتنُ فى خَلْقِها ويفتتن
سكرى لها فى الحياة مُنْحَدَرُ دونى . وفى لوحتى لها منن

***

مسحورةٌ فى الدماء تضطربُ تَسْمَعُ منها دويَّها الأذنُ
أطيافُ دنيا سماؤُها عجبُ
تنآى وتدنو آناً وتقترب
فيها غيومٌ وعندها سحب
تبرز آناً منها وتحتجب
أضيعُ شىء فى أرضها الذهب يجرى بعيداً عن كونها الزمن
وتلك دنيا للسحر مضطرب فيها وللساحرين مُرتَهَنُ

***

تحسبها فى النَّدىِّ إن سمرت أو هزَّها فى مراحها الدَّدَنُ
جنًّا نَادَى ما غازلت طفرتْ
إلى مراقى السماء وانحدرت
وما أصابت من قُبلةٍ سكرت
تطِنُّ كالنحل كلما ظفرت
بشاطئ للنعيم ماعبرت إلاَّ على مدمع به السفن
وملعب للملاح كم خطرت فيه ديار وكم مشت مُدُن

***

أية دنيا هاتيك ظلٌّ شبح من كل فَنٍّ يحفها فنن
وكنزها العبقرى شقٌّ قدحْ
أخى هَزارٍ إن حركته صدح
أو عابَثَتْه على الدِّنان سبح
ذات ظلال سحرية وملح
أكرومة الفن من أَسًى ومرح ترقد فيها القصور والدمن
لوَّنها فى الزمان قوس قزح وذاب فيها السرور والحزن

عودتنا الثانية

للأستاذ خليل هنداوى

غداً عند ما تتهادى اللحود وتنفضنا من حنايا الترابْ
وقد لمستنا أكف الخلود وردت علينا ثياب الشباب

غداً عند ما تنهلين الحياة شراباً ويا برد ذاك الشرابْ
وقد رف للحب كالأقحوان فم لا يزال عليه الترابْ

أنخفق مثل الفراش الجميلْ ؟ نُزوِّق ألواننا من هوانا
أنطلع مثل زهور الحقول ؟ ونملأ جو الهوى من شذانا

إلى أين نمشى وأنَّى نطير ! وقد ملأ العاشقون اللحودْ
وفى كل صوب تهب الحياة ويحيا الهوى ، ويفيق الوجودْ

تعالى إلى لحدنا المطمئن نجدد سيرتنا أو نُعيدْ
لقد كان مثوى فناء عتيق وأصبح مأوى غرام جديدْ !

خليل هنداوى



الزنك

كعنصر أساسي لنمو النبات

للأستاذ عبد الحليم منتصر

— ٢ —

أعراض مرض الحرمان من الزنك

لقد أصبح من السهل تشخيص هذه الحالات المرضية، التى تعترى النبات، نتيجة لحرمانه من الزنك، وذلك بعد التجارب العديدة التى أجريت، والملاحظات القيمة التى أبديت، وبعد أن ظهر جلياً أن علاج هذه الأعراض لا يكون إلا باعطائه حاجته من الزنك، على أن يكون ذلك باحدى الطرائق التى سنوردها فيما بعد

وأظهر هذه الأعراض مايعترى الأشجار التى تتساقط أوراقها خريفاً، وذلك بأن تظهر الأوراق عند حلول الربيع، فى قمم الأفرع الصغيرة، لايتجاوز طول الورقة بوصة، ويكون عرضها نحو ربع البوصة، وهى إلى جانب ذلك محمرة اللون، جافة قليلا، قصيرة العنق، مبقعة فى الغالب. وقد تكون هذه الأفرع ذاتها محملة فى غير قممها بأوراق سليمة لا أثر لهذه الأعراض عليها؛ بيد أن مقاومة هذه الأجزاء مؤقتة، أى أنها لاتستطيع متابعة النمو الطبيعى مدة طويلة، وفى الحالات الشديدة تظهر الأعراض نفسها عليها هى الأخرى، فترى أوراقها صغيرة مبقعة ذات أشكال غير طبيعية. وقد لوحظ أن مثل هذه الأشجار قد تذوى وتموت بعد عام أو عامين على الأكثر، وإن أظهر بعضها مقاومة مرض الحرمان من الزنك مدة أطول

وفى الحق أن هذه الأعراض تختلف باختلاف الأشجار أو النبات، فهى فى المشمش غيرها فى الكريز أو التفاح والجوز واللوز والموالح وغيرها، وما ذلك إلا لأن درجة الاحتمال ليست واحدة، حتى إنه ليصعب على غير ذى الدربة تمييز هذا المرض من غيره إذ تشابه أعراضه أعراض سواه

كما أن من المحقق أن ثمار مثل هذه الأشجار المصابة لاتكون طبيعية الشكل والحجم، فالخوخ والبرقوق تكون ثمارها صغيرة مفرطحة ومدببة أطرافها، كذلك المشمش والليمون. وذلك علاوة على النقص البيّن فى المحصول. وعلى الجملة فإن أشجار الفاكهة فى الحدائق وغيرها من أشجار الزينة تبدى أعراض مرض الحرمان من الزنك، بيد أن درجات احتمالها ومقاومتها متفاوتة، فعلى حين تكون أشجار الخوخ والكريز مثلاً قد أذبلها وأذواها هذا المرض، أو لعله قد صيّرها مشرفة على الهلاك، يكون غيرها من جوز ولوز وتفاح وكمثرى وبرقوق وعنب ومشمش وتين وموالح أكثر مقاومة، وإن كان حتما أنها تصل إلى نفس المصير مالم تسعف بالعلاج ولن ترضى بغير الزنك بديلاً

وتختلف درجة مقاومة النبات للمرض تبعاً لطبيعة التربة التى ينمو بها، فهو أكثر مقاومة إذا ما كانت الأرض طينية، قادر على احتمال نقص الزنك من ألوان غذائه فيها. أما إذا كانت الأرض رملية أو كانت حصباء، فان أعراض المرض لاتلبث أن تظهر إذا كانت كمية الزنك غير مناسبة لحاجة النبات منها.

ومن الملاحظات التى سجلت على الخوخ أنه بعد أن تابع نموه مدى أعوام خمسة كان يعطى فيها أوفر محصول.. ظهرت أعراض تأثره بنقص الزنك فى أواخر صيف العام الخامس، وكانت النتيجة موت أغلب الأشجار خلال ثلاثة الأعوام التالية؛ وعند ما زرعت مكانها أشجار أخرى ظهرت أعراض المرض فى العام الأول مباشرة. وعند ما عولجت بالزنك اطرد التحسن وزاد المحصول

طرائق العلاج

وتتلخص طرق علاج مرض الحرمان من الزنك فيما يأتى من الوسائل التى جربت وثبتت صلاحيتها :

١ — إضافة محلول كبريتات الزنك إلى التربة

٢ — وضع قطع من الزنك في ثقوب تعمل لهذا الغرض فى جذوع الأشجار وفروعها

٣ — وضع كبريتات الزنك فى ثقوب بالشجرة

٤ — رش الأوراق بكبريتات الزنك والجير

٥ — الرش بأكسيد الزنك

٦ — الرش — بعد سقوط الأوراق — بكبريتات الزنك

٧ — الرش بكلورور الزنك

على أنه لوحظ أن العلاج عن طريق التربة هو من أنجع هذه الوسائل ، وخاصة إذا وضع مركب الزنك غير بعيد من الجذع . وقد وجد أن وضع نحو ثلاثمائة كيلو جرام للفدان الواحد مذراة فوق أرضه تبقى نافذة الأثر فى العلاج مدى ثلاث سنوات تباعاً . كما أن وضع مائة كيلو جرام فقط ، توضع بالملعقة قيد قدمين من جذع الشجرة يعطى نفس الفائدة ولذات المدة

أما العلاج عن طريق حقن الجذع بكبريتات الزنك فى ثقوب تكون متقاربة ، يوضع فى كل ثقب من جرامين إلى ثلاثة ، ثم يقفل الثقب بالشمع ؛ مثل هذه الطريقة لم يخب مفعولها مطلقاً فى علاج أمراض الحرمان من الزنك ، بل إن أثرها ليبقى مدة ثلاث سنوات على الأقل ؛ إلا أنه وجد أن الخشب الرخو يتأثر بهذه الطريقة ، كما أن الثقوب قد تكون سبباً فى جلب أمراض أخرى ، وذلك إذا أهمل إحكام غلقها

كما أن إدخال قطع من الزنك أو الحديد المغطى بالزنك (وتفيد المسامير العادية فى بعض الحالات) فى الجذع والفروع ، يعطى نفس الأثر من علاج حاسم سريع للمرض ، إلى تقدم محسوس فى نمو النبات ودرجة إزهاره وإثماره . ويستحسن فى هذه الحالة أن يدق عدد من المسامير على أبعاد وأغوار مناسبة . وقد ثبت أن هذه الطريقة هى أنجع الطرائق المذكورة إطلاقاً ، فهى أقواها مفعولاً وأدومها أثراً . ومما يستحق الملاحظة فى هذه الطريقة أننا إذا ثبتنا مسماراً أو عدداً من المسامير فى أحد الأفرع فإن أثر العلاج يتبدّى واضحاً جلياً على الجزء من الفرع الذى يبدأ بموضع المسمار أو المسامير وينتهى بالقمة ، على حين يظل الجزء من الفرع الذى يبدأ من هذا الموضع نفسه وينتهى بالجذع الرئيسى أو الأرض ، يظل هذا الجزء كما هو لا تبدو عليه أى علائم التحسن أو آثار العلاج

وطريقة الرش هى أيضاً بارعة الأثر فى كثير من الحالات ، فقد وجد أن رش الأوراق بمزيج مكون من عشرة أرطال من كبريتات الزنك ومائة جالون من ماء الجير ، مفيدة جداً كعلاج لأعراض مرض الحرمان من الزنك ، وخاصة للموالح والمشمش والعنب ، وإن كان من الحق أن نقول : إنها كانت غير وافيــة بالغرض فى بعض حالات أخرى . وقد وجد أنه فى حالة استعمال هذه الطريقة يحسن أن يعاد رش الأشجار المصابة مدى عامين متتاليين إذا كان مرض الحرمان قد أثر تأثيراً سيئاً على النبات

كيف تؤثر طبيعة التربة وصفاتها الكيميائية فى سير مرض الحرمان من الزنك ؟ وكيف يستجيب النبات لهذه المؤثرات ؟ وما هو الدور الذى يقوم به الزنك فى النبات ؟ سيكون ذلك موضوع حديثنا فى عدد الرسالة المقبل إن شاء الله تعالى

« يتبع »

عبد الحليم منتصر
ماجستير في العلوم



مشهد غرامي من أنتوني ترولوب

غرام راهب

للأستاذ دريني خشبة

لم يكن لَبقاً سيدنا الحَبْر الجليل — المستر سلوب — حين حاول هذه المرة أن يُنقّل فؤاده حيث شاء من الهوى ... فلقد عرف الناس أنه مشغوف بالسيدة (... بولد) وأنه يسعى جهده ليحظى بها زوجة مثرية غنية ذات مال وذات جمال ، وذات ربع ثابت يَقْدُره العارفون بألف أحمر رنان تقبضها غير منقوصة كل سنة ... عرف الناس هذا ، وحرص سيدنا الحَبْر الجليل على ألا تفلته هذه الفرصة النادرة التى تضمن له غَرْفةً من كنوز قارون فى كل مطلع عام جديد ، فيضمن نوال الدنيا و ... حسن ثواب الآخرة !!

ولم يكن أحد يعيب عليه قط مجازفته الغرامية هذه ، لأنها كانت فى سبيل الزواج ... والزواج شىء عادى أقرته الأديان ونزلت به الشرائع ... أما أنه راهب فلا بأس ، فإنها رهبانية ما فرضها الله على أحد ، فَلِمَ يفرضها سيدنا الحبر الجليل — المستر سلوب — على نفسه ؟!

وسيدنا الحبر الجليل رجل يعرف حق الدنيا كما يعرف حق الآخرة ويعطى لقلبه من هذه الدنيا تسعة وتسعين من أنصبتها المائة المقسمة بينه وبين عقله ... لذلك كان شعوره يطغى على تفكيره ... وكان هواه المتقد وعاطفته المشبوبة لا يتفقان ومركزه الذى أساسه أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر والبغى

فلقد عرف هذا الحبر السيدة (... بولد) الأرمل ، بعد أن مات زوجها ، وبعد أن ترك لها هذه الثروة الهائلة التى أسالت لعاب المستر سلوب ، وشبت أطماعه ... فلم ير بأساً أن يصل أسبابه بأسبابها ، وأن يملقها ويدهن لها ، وأن يزخرف لها حباً يوهمها به أن له ناراً تتأجج في قلبه ، وتندلع بين أضالعه ... وكان للأرمل الغنية شىء من الجمال غير قليل ... وإن كان جمالها يذهب به كثرة اللحم والشحم ، وقصر الرقبة واستكراش البطن ، وترهل الثديين قليلا ... ولكن وجهها كان ذا رواء وسيماء ، خصوصاً حين تعالجه بالأصباغ والدمام ، وسائر فنون التطرية ... لقد كانت تجلب له حسناً مصنوعاً يغرى المساكين من أمثال سيدنا الحبر الجليل المستر سلوب ، فكيف وقد حازت هذا الثراء الضخم ، والغنى الواسع ، والدخل المضمون ؟ ... إنها ما أغنى وما أقنى ، فلم لا يغضى الحبر الجليل عن بعض العيوب التى جرها الشحم واللحم ؟ ولم لا يذكر أنه هو الآخر ليس وسيما قسيما ، ولا نحيل القد ممشوق القوام ، ولا له لفتة الظبى ولا خيلاء الطاووس !؟ بلى ، ينبغى أن يذكر لحيته الهائلة التى تحجب عين الشمس عما تحتها من وجه مكلثم ، وصدر كأنه نصف جبل حملته ساقا عفريت . وهكذا ينبغى أن يخجل قلبه المنهوم بالجمال قليلا ، فنظرة خاطفة فى المرآة تقنعه بمحاسن الأرمل السيدة بولد ، ونظرة أخرى إلى ثروتها الكبيرة تجعلها أجمل حسان الدنيا

ولكن قلب الحبر الجليل ليس من هذه القلوب الرطبة التى تقنع بصيد واحد ، لا سيما إذا كان هذا الصيد وثناً من أوثان الدنيا التى تغرى بالذهب ، وتجذب بالثروة ، وتتكلم بالدنانير .. لا .. ليس لمثل هذا الصيد يخفق قلب الراهب الذى يشغفه الجمال فهو ينبض له ، وتجذبه مفاتن الحسن فهو يهيم بها ... إن لمثل هذا القلب فى هذه الدنيا حقوقاً يقتضيها من خدود الغيد وعيون الخُرَّد الأماليد ، وهو لا شأن له بالذهب الذى يضمن سعة الحياة ورَغَد العيش وإقبال الأيام ... ومن أجل ذلك فليس لقلب المستر سلوب من هذه الأرمل الغنية نصيب ، فهى صيد نفيس سمين لأطماعه ، ومن أجل ذلك فلينطلق هذا القلب فى دنيا الجمال

ينشد صيده ، فهو لا يعنيه أن يعكف على وثن من الذهب يتعبده ولا يهواه

***

هذه هي السيدة ... بولد ... أما السينورة نيروني ، فزوجة وفية للسينور نيروني من كبار رجال السياسة والطب، وقد تزوجها السينور لجمالها البارع، ولهذه الألغاز العميقة التي تمتلىء بها عيناها السحريتان ؛ وتلك الظلال الحزينة الفاتنة التي تموه جبينها بمثل ظلال الغروب ... وليس شك أن السينور يحبها ويحرص على مرضاتها ، وأكبر ما يعطف قلبه عليها أنها مقعدة ، أو كالمقعدة ، لأنها أصيبت بلين في عظام ساقيها بعد أن بني عليها ... ولسنا ندري إذا كانت السينورة تحبه ، أو تحب أحداً من العالمين ... فلقد عبست للحياة وتنكرت لمباهجها وأول هذه المباهج الحب .. وكان السينور يفرط في منحها حرية الاجتماع بمن تشاء ، والخلوة بمن تحب ؛ وكانت هي كالعنكبوت الصناع التي لا تفتأ تنسج شراكها للذباب ، فلم يكن أحد يخلو إليها حتى تصمي قلبه بنظرة أو نظرتين من عينيها القتالتين فتزلزله ويصبح لها عبداً وبها هائماً وكأنما كانت تنتقم لنفسها من الناس فهي تعذبهم بالحب الذي لم تبله ، وتكوى قلوبهم بالغرام الذي لم تعرفه . وقد أولعت بذلك حتى صار طبعاً ثانياً لها ، وهي لا تستحي أن تفخر بذلك وتباهي به ، فتقول لأختها : « إنها لا تعجز عن إذلال قلوب الجبابرة وقسرهم على التمرغ تحت قدميها ... » ولم يكن بدعاً إذن أن يكثر عشاقها حتى يربوا على العشرين ... وكان أحرهم شغفاً بها هو هذا الحبر الجليل العلامة المستر سلوب ، الذي لم يكد يراها حتى نسي نفسه ووسوس له شيطانه ، فعقد أواصره بأواصر السينور نيروني ، ثم بأواصر السينورة من بعد ... وأي بأس في أن يحتفظ بالسيدة بولد لنفسه الأمارة الطاعة ، وبالسينورة لقلبه المنهوم بكل هيفاء حسناء ... لا بأس قط ... فليضع في قوس كيوبيد وترين عردين ، وليَر كيف يصيب بهذه القوس إن كان مثله يحسن أن يحمل مثلها ... ثم ليكن جريئاً ... فلا يبالي رجال الكهنوت وهذه المعاطف الفضفاضة السود ، ومقالة السوء التي يثلبونه بها ... وليزر السينور نيروني في الوقت الذي لا يكون السينور موجوداً فيه في منزله ، ولا جرم إن السنيورة ستلقاه حينئذ ، وسيشرب في حضرتها قدحاً من القهوة ... وربما أمرت له بكوب من نبيذ بردو يبعث الدم حاراً في عروقه فيزداد جرأة وإقداماً ، وقد يجد الفرصة الجميلة فيكشف عن خبيئة قلبه لهذه السيدة اللعوب ... وليس ضير أن يفشل مرات ومرات في البوح لها ... على أن السينورة الحصيفة اللبيبة قد عرفت ما يجتاح قلبه من حبها لأول زورة من زياراته الصباحية المفتعلة التي حسب أنه شرفها بها ... ولقد كانت السينورة واسعة الثقافة ، بل كانت أكبر من ذلك ، كانت فيلسوفة بفطرتها ، تجيد الفلسفة التطبيقية في كل أحوالها ... وكانت تجيد ذلك على الخصوص مع رجال الدين ... فما بالك بحبر جليل من عظمائهم ينسى نفسه بين يديها ، وينسى وظيفته في الحياة ، وينسى دقات الناقوس التي توقظ الغافلين وينسى بيانه الذي يرهب به ويرغب ... وينسى كل شيء ... حتى صور القديسين والحواريين التي كانت تهاجمه كلما خلا إلى السينورة فلا يأبه بها ، ولا يعنى بهتافها به كما يعنى بانتقاء العطور التي يضمخ بها نفسه ، والبنيقات التي يحرص أن تكون نظيفة ناصعة ، وبكل ما يظهره فتى في عين السينورة ، من منديل جميل وقفاز جديد ... و ...

وذهب الراهب الوقور ليسأل كعادته عن السينور فلم يجده ، وأدخل إلى السينورة فلم تمن به إلا كما يعنى الصبية بمجاز الشص ينبه عن فريسة السمك ... ووجدها كدأبها دائماً مضطجعة فوق كنبة وثيرة عند مكتبها الفخم ، وبيدها يراعها الأبنوس الثمين ، وأمامها صحيفة تخط فيها كلاماً قالت عنه وهي تتخابث إنه خطاب أوشكت أن تكتبه للحبر الجليل ... ثم مدت يدها الجميلة البضة لسيدنا الراهب فتناولها في يده المرتجفة ، وانحنى برأسه الكبير ولحيته المنكرة فلثمها ، وهو يخيل إليه أنه يسرق القبلة الذهبية من كنوز سليمان ... يا له من منظر عجيب !! لقد كان شيء كبير هائل شائه كرأس ثور ، ينحني فيبحث في زهرة يانعة جنى عليها المنجل فقذفها في طعامه ... بل كان أغرب من هذا ... لقد كان كالتنين المهولة يغازل فينوس ربة الحسن !

— لقد أوشكت أكتب إليك ، فأما وقد جئت ، فلألق بما كتبت في سلة المهملات ...

— لا ... لن يكون مصير ما تتفضلين بكتابته إلى هذا المصير ... لأحتفظ به إلى الأبد ، فإذا كان لا بد من إبادته ، فلأحرق له بخوراً ولألق به في ناره ! أليس كانت ديدو تصنع مثل هذا ؟

— أنا لا أحترم ديدو هذه أيها الأب ... لقد كنت أوثر أن تكون ديدو مثل كليوبترة حين رأت ما حاق بحبيبها فآثرت

أن تلحق به ، حتى لا تقع بين المطرقة والسندال ... أيها الأب الكريم مستر سلوب ، أرجو ألا تخلط بين جد الحياة وبين عبث الحب ! »

وصبغت حمرة الخجل وجنات الحبر الجليل لأنه أيقن أن السينورة تعرض بما بينه وبين المسز بولد ، وأنها تشتهى أن تذله كما أذلت عشرين عاشقاً لها من قبل ... ثم لم تشأ أن تقسو عليه فقالت تعبث به متلطفة :

— ماذا ؟ إنى ما أزال أقولها لك فى صراحة : لا تخلط بين عبث الحب وجد الحياة ... إن أمامك ثروة واسعة ، ومدينة من الذهب شاسعة ، وإنك تشتهى أن تكون صاحبها ، فأقدم بحزم ، ولا تتلف أطماعك بهذا الحب الطارئ ؛ فإن كنت فى عرض الدنيا زاهداً ، فأحب كما ينبغى أن يكون الحب ... هب الحب كل قلبك فالحب يكره أن يشركه أحد فى القلب ... فإذا أبيت إلا أن تصيب الحسنيين فاعلم أنك من الآن فاشل ... فأيهما تؤثر أيها الأب : المال ، أم الحب والجمال ؟ !

وطافت برأسه طائفة من الأفكار ، ولكنها طافت بسرعة البرق ، فقال : « بل الحب ، ولا شىء غير الحب ... الحب الذى ينبغى أن يقهر كل رغبة وأن يسود جميع الأطماع ... »

— بل آثر أن تستمع إلى نصيحتى ، وتذكر ما بعد نشوة الأسبوعين أو الثلاثة الأسابيع من عمر الحب ... ! إنها الخيبة وانعكاس الأمل ... إنه ماحدث فى الأساطير لمنزيس التى لم يحب أحد كما أحبت ولا اكتوى عاشق بمثل ما اكتوت ... إن التفانى فى الحب يعنى الفشل فيه ... والحب الصحيح يعدل القنوط من جنى الثمرة المشتهاة ... أو لم تحب جوليت ؟ أو لم تحب ديدو ؟ وهايدى كذلك ! وترويلوس ؟ ألم يحب حباً طمس رجولته ؟

— بلى ... لقد أحب ترويلوس ولكن تنفلته حبيبته ، ويستطيع كل إنسان أن يحب ولا يكون ترويلوس ، فليس كل النساء كرسيدز !

— هذا حق ، ولكن عدم الإخلاص ليس كله فى جانب المرأة ، بل لكم النصيب الأوفى فيه ... فلقد أخلصت إملوجين ، فماذا كان جزاؤها ؟ ألم يتهمها زوجها أنها صبت إلى أول ضيف انفردت وإياه لأول مرة فى غيابه ؟ وديدمونا ؟ لم خنقها بعلها ؟ ألم تكن مخلصة وفية ؟ وأوفيليا ؟ ألم تجن بإخلاصها ؟ إنه يبدو لى ألا سعادة فى الحب إلا فى خاتمة القصة الانجليزية ! أما هذه الدنيا السحرية فى ذهبها وجمالها وفتنتها وخيراتها سعادة محسة لا مراء فيها ... سعادة يسع كل أحد أن يهنأ بها ويرشف ماشاء من معينها ...

وارتبك الحبر الجليل قليلاً ثم قال : « أوه ! كلا ... إن كل هذه الدنيا بجميع ما حوت من حطام لا يمكن أن تؤدى إلى السعادة ! »

— إذن ماالذى يستطيع أن يجعلك سعيداً أيها الأب ؟ ماالمعين الذى لا ينضب ، الذى تنشد منه سعادتك ؟ لن تقول ألا معين لك ، فلكل من الناس معينه الخاص !

وغلب الحبر خباله الدينى فأجاب : « قد يبحث الإنسان عن السعادة فيعييه البحث ، ذلك لأننا نبحث عنها دائماً فى هذه الأرض ، وهى لا تكون إلا فى السماء !! »

— صه ، ويلك ! إنك تقول بلسانك ماليس فى قلبك ... إنها تعاليمكم التى لم تستطع أن تشفى أطماعكم فى هذه الدنيا .. ! إذا لم يكن شىء من السعادة حقاً فى هذا العالم الفانى فلم جاهدت أن تكون قساً وجاهد أصحابك معك ؟ لم طمعتم فى حطام هذا الفناء وتشبثتم به ؟

— ذلك لأنى لم أطهر من شوائب آدميتى ، فإن لى كما لجميع الناس أطماعاً ...

— صدقت ، ولذلك قلت لك إنك تقول بلسانك ماليس فى قلبك ، وإنك تسلم بما لا تؤمن ، وإنك تبيع للناس عظات لا تعتقد بصحتها ... لقد كان القديس بول مؤمناً حقاً ، ولذلك لم تفسد الدنيا بكل مافيها من زخارف تعاليمه ؛ وكان مثله القس اللاهوتى المتزمت ، الذى قضى نصف عمره قائماً فوق عمود فى أرض الفراعنة ... أنا أجل هؤلاء وأضرابهم ، لأنهم يؤمنون بالشىء فيبدو إيمانهم فى كل مايصدر عنهم ... فإذا دعا رجل الدين إلى فضيلة ولم يكن متحلياً بها ، فتعساً له ، وتعساً للفضيلة تخرج من فمه فتكون رغاء ...

وانعقد لسان الحبر الجليل فلم يحر جواباً ... وأنى له أن يستذكر تعاليم مولاه التى أعطى مركزه ليبشر بها بين الناس ما دام الشيطان يملك زمامه ، ويؤجج نيران الجحيم بين يديه .. ثم أنى له أن يجسر على هذه التعاليم فيذلها لشهواته ، وهو يعلم ويؤمن ، أن مولاه الإله محيط به ، ما تكاد تكون له نجوى إلا هو عالم بها ؟ ! وقد طربت السينورة لما بدا عليه من بداوات الحيرة

والقلق والارتباك ، فقالت له : « يبدو لى أن ذكاءك وتوقد ذهنك يسلمان بهذه القضايا ، بيد أنى ألحظ أن قلبك وعاطفتك عَمِيَّان عنها ، أليس كذلك ؟ »

— قلبي ! ! إنك أنت التى توجدين ثغرة هائلة بين ذهنك وبين قلبك ، بين ذكائك وبين عاطفتك ... إنى أتهمك بما تتهميننى به ... »

ثم حمل كرسياً ودنا من السينورة بحيث لم يعد يحجز بينهما إلا زاوية المكتب الفخم الذى كانت تكتب عليه ، وكانت يدها الجميلة الساحرة ممتدة عليه ، فبلع سيدنا الحبر الجليل ريقه ، ووضع يده الثقيلة الملتهبة عليها ... فقالت له :

— هـذا يعنى أنك ... تحب ! وأنك تجعل منى جَنّةً مقمرة لأحلامك ؟ !

— ولم لا ! إن حبك يصلح لأن يكون جنة واسعة مقمرة لأحلام ملك !

— لأحلام ملك ؟ هه ! بل قل لأحلام رئيس أساقفة يا عزيزى المستر سلوب ! ! وله ؟ إنكم دائماً تعسلون لنا زخرف القول أيها الرجال ! وأنتم خاصة أيها الأحبار أمهر الناس فى توشية الكلام .. كن شجاعا يا عزيزى المستر سلوب وانظر إلى بمجامع عينيك

وكانت قد سحبت يدها الجميلة الساحرة بعيداً من يده فنظر إليها بعينيه الجائعتين المنهومتين نظرة الوامق الملتاع ، ومد يده ليقبض على يدها ، لكنها رمقته بعينيها الجميلتين الصارمتين وقالت له : « لقد زجوتك أن تحول حماسة يديك الجبارتين إلى عينيك الحالمتين يا مستر سلوب لكنك لم تفعل ... »

وكان قلب الحبر الجليل قد انماث من لوعة الحب ، وتعذيب الحبيبة ، فصرخ شاكياً :

— أوه مدلين ! !

فتبسمت عن ثنايا كاللؤلؤ وقالت له : « حسن ، إن اسمى مادلين ، هذا لا ريب فيه ، ولكن أحداً من العالمين لا يجرؤ أن يناديني به إلا أن يكون من أسرتى ، أفتريد أن أفهم من ذلك يا مستر سلوب أنك تحبنى وتتعشقنى ؟ ! »

وارتبك الحبر الجليل ، ولم يدر ما ذا يصنع ، لأنه إنما أتى إلى بيت السينور ليجلس جلسة غرامية من غير أن يصرح بلسانه أنه يحب ، فلما بدهته هى بهذا السؤال لم يستطع إلا أن يجثو على ركبتيه أمام الأريكة ، ويصرح أنه إنما يحب السينورة حقاً ، ولكن لا كما يحب الناس ! ! فلما قالها ... بدهته السينورة بسؤال آخر فقالت :

— « والآن ، أتستطيع أن تخبرنى متى تتزوج بالسيدة ألينور بولد ؟ ! »

ولم يستطع المسكين إلا أن يقول : « ولأمر ما ترميننى بتهمة النفاق والتغرير بك يا عزيزتى ؟

— نفاق ! أنا لم أقل شيئاً من هذا أيها الأب ! ولكنه يبدو لى أنك تحب أن تدافع عن نفسك فيما يتعلق بى ؟ فلم هذا ؟ لم لا تبقى دفاعك لتقدمه بين يدى السيدة ألينور ؟ إنها هى التى ستتزوج منك ، أما أنا فامرأة ذات جمال راقتك ، وليس هذا شيئاً ، ألا ما أبرعكم فى التخريج يا رجال الدين ؟

— لقد بحت لك يا عزيزتى السينورة أننى أحبك .. أهواك . أعبدك ... فلم تعيّرينني ؟

— أُعيرك ؟ يا لله ! هلم أيها الأب نخبرنى ! ألا تتزوج من السيدة ألينور بولد ؟

— لا ... لن يكون هذا !

— بل أؤكد لك أنك من عُبَّادها !

— وأنا أنفى ذلك من كل قلبى !

— ولم لا أيها المستر سلوب ؟ إنها أولى النساء بك ... بل تزوجها تكن لأطفالك أما ولبيتك ربة ... ثم لا تنس أنها أرمل جميلة ذات ثراء !

— ألا ما أقساك يا سينورة !

— أو تلك قسوة ؟

— أجل ... إذ كيف يصبو فؤادى الذى هو لك إلى امرأة سواك ! ؟

— إذا كانت هذه قسوة أيها الأب ، فماذا إذا صرحت لك أنى لا أملك أن أبادلك حباً بحب ولا عاطفة بعاطفة ؟ فإذا كنت لا أملك هذا ، فخبرنى كيف أجزيك على حبك ؟ أأجزيك عليه بأن تحضر كل يوم فتسبح بحبى وتذكر محاسنى ! أواه ! ما أقساك أيها القدر ! !

وكان الأب الجليل ما يزال راكعاً بين يدى مادلين ، فلما

أهوت على قلبه بهذا التصريح هب منتفضاً كالغراب (!) الذي بلله القطر ، وجلس على كرسي قريب

— وهل تسمحين أن أعطف عليك ... مجرد عطف ... على مانابك ؟

— تعطف على ؟ بل تريد أن ترثى لى لأنى شبه مقعدة ؟ إني إذن أحتقرك !

— أوه مادلين ! أردت أن أقول « أحبك ! »

ثم انقض على يدها الضعيفة الجميلة يمطرها آلاف القبل ... فقالت له بعد إذ لم تستطع أن تذوده :

— هذا جميل ! ولكن لنفرض أن السينور نيرونى فاجأك الآن ، فماذا عساك أن تفعل ؟ وأفاق من سكرة حبه على الاسم المخيف فقال : « سينور نيرونى ؟ ! »

— أجل ... سينور نيروني ؟ أترسله إلى الأسقف وزوجه السيدة برودى ؟ »

— ولم تسألين ؟

— لم أسأل ؟ إنى أحببت أن تعلم أن هناك رجلا لا تذكره يدعى السينور نيرونى ؟ !

— لا ... بل أنت تنسين قلبك حين تذكرين السينور زوجك ! إنك لا تحتفظين له بأثارة من الحب لأنه غير خليق بك

— القلب مرة أخرى ؟! مالك كيف تتكلم أيها الأب ؟ تريد أن تقول إن المرأة التى لاتضمر حباً لزوجها لها الحق فى أن تخونه ؟ أو على الأقل لها ألا تخلص له ! والذى يقول هذا كبير أساقفة الكنيسة الانجليزية

واشتعلت الجحيم فى رأس كبير الأساقفة ، وعجب كيف تذله امرأة مقعدة كالسينورة نيرونى ، وتمنى لو استطاع فجعلها تسجد بين قدميه تطلب حبه كما فعل هو ، وتمنى كذلك لو انتزع حبها من قلبه فقذف به من حالق ... ولكن شتان بين أن يتمنى المرء وبين أن يقدر ، فلقد سحقته السينورة لأنها عرفت من مآسى الحياة مالم يعرف القس ، و بلت من تجاربها مالم يَبْلُ ... وذلك أنه ما كاد يرفع عقيرته بالاحتجاج حتى غلبه هواه ، وسجد مرة أخرى تحت قدميها يستعطف كالتلميذ الذليل ... لكنها وصلت سخريتها به فقالت له :

— ولم لاتضحى حبك أيها الأب مادام زَيفاً وبهتاناً !

— زيف وبهتان ؟ أتريدين أن تقولى إن حبى لك زيف ؟

— زيف وأى زيف !! وإلا ، فافرض أننى حنثت فى سبيلك بيمينى أن أكون إلى الأبد مخلصةً لزوجى وفيةً لاسمه الذى حملت ، وأننى زلت لأرضى حبك وأشفى لوعتك ، فهل ترضى إذا أُخرجت من هذا البيت أن تذهب معى فنقف أمام المذبح لتعلن للملأ أنك رضيتنى زوجة لك ... ؟ أنا ... ؟ هذه المقعدة التى لايسندها فى فؤادك إلا مسحة من الجمال تفتنك الآن ، ولا تدرى ماذا تكون فى غد ؟ — ولكن الحبر الجليل لم ينبس ببنت شفة ، فقالت مادلين : « ماذا ؟ تكلم ! ماذا تضحى من أجلى إذن إذا ضحيت لك بكل ماعرفت !؟ »

فقال الأب : « لو أنك حرة الآن لرضيتك زوجة لا أرضى بها ملء الأرض ذهباً ! »

فقالت مادلين : « لو أننى حرة ! أنا حرة ! ها أناذى حرة ! لننطلق إذن من هنا ... هلم فاحملنى إلى دارك ! لم تقف جامداً هكذا ؟ »

لكن الأب لم يبد مع ذاك حراكا ...

— آه ! لقد خشيت أن تضحى الدنيا الواسعة المترعة بالخيرات من أجل امرأة مقعدة مثلى ! إذن فهلم نكون صديقين ... صديقين فحسب ... لا تنس هذا ... »

وانحط على الكرسى القريب منها ، ثم تناول يدها الجميلة الساحرة وطفق يقبلها أكثر وأحر مما فعل قبل ... حتى لكأن الدرس القاسى الذى تلقاه لم يكن له أثر ... وزاد الطين بلة فقال وهو يبكى :

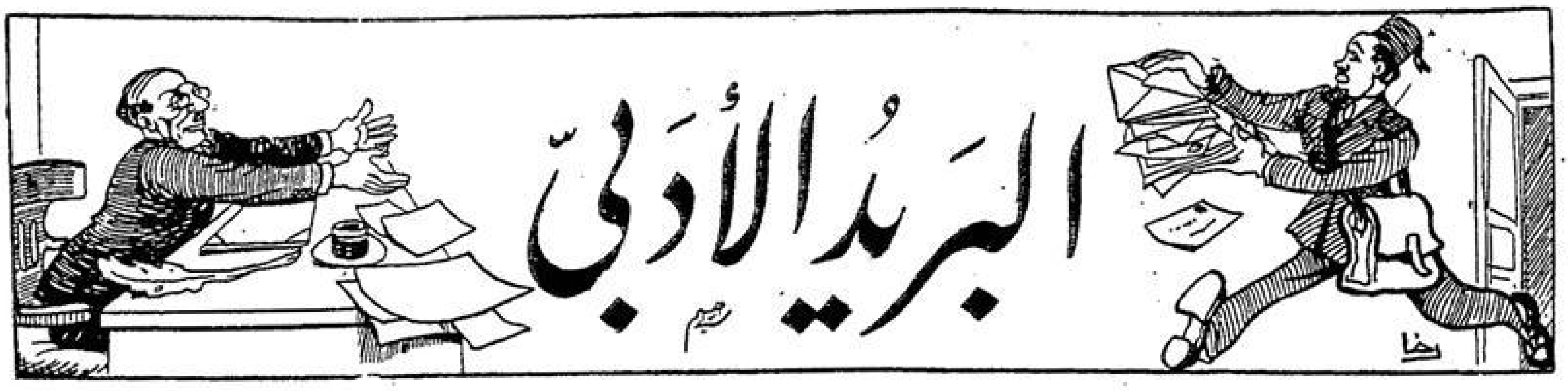
— « مادلين ... مادلين ... قولى إنى أحبك ... قولى يا مادلين ! »

* * *

وهنا سمع وقع أقدام فى الخارج فنهرته السينورة وهى تقول : « صه أيها الأب ! إن أمى قادمة وأخشى أن تشهد دموعك ... هلم فأصلح من شأنك ... »

ووثب الأب الجليل مروعاً ... ولم يعن بإصلاح شأنه ... بل انطلق على وجهه من الباب الخلفى ، ولم يعد أحد يسمع به ... لأنه لم يذهب إلى الكنيسة منذ ذلك اليوم ...

(ملخصة) دريني خشبة



الى صحف القطر الشقيق

نشرت فى عدد « الرسالة » الماضى على أثر ماعلمته من أن جريدة المكشوف البيروتيـة نشرت خطاباً ومقالاً زعمت أنى أرسلتهما إليها — كلمة موجزة كذبت فيها هذه الواقعة بطريق حاسم وقلت إن ما فعلته المجلة المذكورة إنما هو تزوير شائن

والآن بعدأن اطلعت على بعض الصحف البيروتية التى نقلت المقال المزعوم أو علقت عليه (وذلك لأنى لم أستطع الحصول على عدد المكشوف الذى حدث فيه النشر المزور) عرفت أن الصحيفة المذكورة قد عمدت إلى مقال قديم كنت نشرته فى « السياسة الأسبوعية » سنة ١٩٣١ واقتضبت منه عبارات مسختها وزعمت أنها مقال أرسلته إليها ، ونشرت إلى جانبه الخطاب الذي زعمت أنها تلقته منى

وقد أرادت الجريدة المذكورة أن تلقى بذلك فى روع قرائها أننى أؤيد الحملة الدنيئة المستمرة التى تشهرها على التفكير المصرى والكتاب المصريين ، والتى لاتلقى هنا وهنا لك سوى ماتستحق من الإعراض والزراية ، وأرادت أن تدلل على ذلك ببعض فقرات اختلستها من مقالى المذكور

فأقرر هنا أنى كتبت هذا المقال منـذ سبعة أعوام لمناسبة حالة أدبية معينة لاحظت أعراضها يومئذ ، ورأيت فى تلك الأعراض بعض وجوه ضعف يجب اصلاحها وتداركها . والحركة الأدبية المصرية ليست معصومة ، ولم يقل أحد إنها بلغت ذروة الكمال ، بل هي كـكل حركة فكرية واجتماعيـة قابلة للنقد والاصلاح ؛ ولـكن لما كانت الحركة الأدبية المصرية تثب بخطى الجبابرة فان هذه الآراء لا يمكن أن تعبر إلا عن الوقت والظروف التى قيلت فيها

أما أن تعمد جريدة المكشوف إلى اقتضاب بعض ما ورد فى هذا المقال ثم تزعم أني أرسلته إليها ، بل وتذهب فى الافتراء إلى أبعد من ذلك فتقرن المقال المزعوم بخطاب تدعى أنى أرسلته إليها فأقل ما يقال فى ذلك إنه عمل إجرامى دنىء

ما كان لمثلى أن ينزل إلى مثل ذلك فيبالى ورقة عرفت بحقدها المضطرم على الثقافة المصرية ، وعلى النيل من ثقافة بلاده التى يعتز بها ، والتى يتشرف هو بأن يشترك فى حمل لوائها الخفاق

ولقد رأيت فى بعض صحف القطر الشقيق بعض مقالات وتعليقات على هذه الدسيسة الأدبية المثيرة ، نشرت بلا ريب بحسن نية ، ولما كان من المتعذر على أن أكتب إليها جميعاً فإنى أكتفى بأن أوجه إليها هذه الـكلمة على صفحات الرسالة لتقف منها على الحقيقة ولتذيعها نصرة للحق والانصاف

أما الصحيفة القاذفة المزورة فأمرها إلى القانون يحاسبها ، وإلى الرأى العام يصدر حكمه عليها

محمد عبد الله عنان

ذكرى وفاة أبى الفرج الأصبهانى

فى انتهاء عامنا الهجرى هذا يكون قد مضى ألف سنة على وفاة المؤلف العظيم أبى الفرج الأصبهاني على بن الحسين الأموى المروانى الذى يعد من أعاظم المؤرخين والبحاثين ، فقد بلغ عدد ما عرف من مؤلفاته خمسة وثمانين مؤلفاً من أثمن المؤلفات العربية فى التاريخ والاجتماع والأدب ، وأشهرها « الأغانى » ؛ وقد أجمع المؤرخون على أنه لم يصنف مثله فى هذا الباب ، ولولاه لضاع شعر الجاهلية والاسلام ؛ وقد ألفه فى مدة خمسين سنة ولم يزل هذا الـكتاب المطبوع فى ٢١ مجلداً منذ ألف سنة حتى اليوم ينبوعاً صافى المورد ، ومنهلا عذب الارتشاف ، يرده الأدباء والمتأدبون وهم ظماء ، ويصدرون عنه وهم رواء . فكم من أديب نابغ قد تخرج عليه ، وعلم من أعلام البيان العربى كان يرجع بيانه إليه ، وشاعر

فحل زكت شاعريته ونمت موهبته بالرواية عنه والأخذ منه ...

وقد عن لي بهذه المناسبة — مناسبة مرور ألف عام على وفاته — أن أقترح على علماء العراق وأدبائه وأهل الفن فيه إقامة مهرجان ألفي في بغداد موطن المؤلف التي كتب فيها جميع مؤلفاته وتوفى فيها بعد أن خلد اسمها إلى أبد الدهر. ولا أظن أن من الأقطار العربية من يتأخر عن الاشتراك في هذا الاحتفال وتعديد مناقب رجل جمع بين علوم الدين والدنيا في الاسلام

(كربلا) عباس علوان الصالح

وفاة علامة هندي عظيم

نعت الينا أنباء الهند الأخيرة العلامة الهندي الكبير السير جاجاديس شندرا بوز، أعظم علماء النبات المعاصرين، توفى فى نحو الثمانين من عمره؛ وكان مولده بالهند فى سنة ١٨٥٨، ودرس فى كلكوتا وكامبردج؛ وبدأ حياته أستاذا فى جامعة كلكوتا، وتخصص فى علم النبات وأبدى فيه براعة خاصة. ثم انقطع بعد ذلك لدراسة حياة النبات، ووفق أثناء تجاربه إلى عدة اكتشافات باهرة لفتت إليه أنظار العالم، وكان أهمها ما أثبته بالتجارب العملية وهو أن النبات كأى إنسان يشعر ويحيا، وله كالانسان نبض يمكن جسه وإحصاؤه؛ ولإثبات نظريته الجديدة اخترع السير بوز آلة سماها «كرسكوجراف» تسجل حياة النبات ونبضه، وتكبرها بنسبة مائة الف مرة؛ وبهذا الآلة يمكن مشاهدة نمو النبات وتأثره بالعوامل الجوية، وبالعناصر الغريبة التى يلقح بها كالأسمدة أو السموم أو غيرها. وقد عرض السير بوز تجاربه فى أنحاء العالم فحازت إعجاب العلماء وتقديرهم جميعاً. ومما يذكر أنه قدم إلى القاهرة فى شتاء سنة ١٩٢٧، وعرض تجاربه أمام جمهور من العلماء والشاهدين فأدهشهم جميعاً بما عرضه من حركات النبات ودلائل حسه ونبضه. وللسير بوز عدة آلات دقيقة أخرى اخترعها لتسجيل الحياة النباتية، وله عدة كتب تعتبر فى هذا الباب مرجعاً وحجة، منها:

Erritability of Plants, (جواب النبات) Plant Response (تهيج النبات) Life Movements in Plants, (حركات الحياة في النبات) The Nervous Mechanism of Plants, (الجهاز العصبي للنبات) وغيرها؛ وهو يعتبر عميد العلوم النباتية فى العصر الحديث

مذكراتي في نصف قرن

منذ أيام قلائل صدر القسم الثالث والأخير من كتاب «مذكراتي فى نصف قرن» بقلم الأستاذ الجليل أحمد شفيق باشا وقد استطاع قراء القسمين الأولين من هذه المذكرات النفيسة أن يقدروا اليد الجليلة التى أسداها الأستاذ شفيق باشا لتاريخ مصر الحديث بتدوين هذه المذكرات ثم باخراجها؛ وكان تدوينها فى الواقع عملاً دقيقاً شاقاً شغل حياة مدونها، بيد أنها كانت سلوى حياته لا يغفل عنها، ولا ينسى متابعتها قط مهما ادلهمت من حوله الخطوب والحوادث؛ وكان فوق ذلك أجدر الناس بتدوينها، وأقدرهم على الاستفادة من عبر الحوادث وفهم أسرارها وتطوراتها؛ ذلك أنه كان مدى ثلث قرن شخصية بارزة فى القصر الخديوى، بل كان مدى أعوام طويلة أعظم رجال البطانة الخديوية نفوذاً وأشدهم تأثيراً فى توجيه الخديو؛ وكان بحكم منصبه ومراقبته لسير الأمور من أكثر الناس اطلاعاً على سير الحوادث، وعلى أسرار الوثائق، وأكثرهم فهما للرجال العموميين. فما يقدمه إلينا فى مذكراته هو أصح وأدق ما يستطيع مؤرخ معاصر أن يقدمه عن حوادث عصره

ويشمل القسم الثالث من هذه المذكرات النفيسة مرحلة الحرب الكبرى وما بعدها، من سنة ١٩١٥ إلى سنة ١٩٢٣؛ ونحن نعرف أن الخديو عباس حلمى كان منذ صيف ١٩١٤ متغيباً فى استانبول، وأن الخلاف وقع بينه وبين الانكليز منذ نشوب الحرب الكبرى، فلم يعد بعد ذلك إلى مصر، وأنه لعب أثناء الحرب أدواراً خطيرة، واشترك فى كثير من مشاريع السياسة الألمانية التركية نحو مصر. وقد كان المؤلف خلال هذه الأعوام المدلهمة إلى جانب مولاه فى المنفى مع نفر من كرام المصريين، يتتبع عن كثب تطورات الحوادث ويقيدها. وهو يقص علينا في مذكراته ناحية من المأساة لم تكن مصر خلال الحرب تدرى شيئاً عنها؛ ومن الصعب أن نتتبع محتويات الكتاب فى هذا المقام الضيق، ولكننا نستطيع أن نقول باختصار إنها كل حياة الخديو السابق وكل حركاته وأعماله منذ سنة ١٩١٥ إلى سنة ١٩٢٠ وهى صفحة غريبة مشجية من تاريخ مصر السرى لا نعرف عنها سوى القليل؛ ومن حولها معلومات وتفاصيل كثيرة عن المصريين

الذين اشتركوا فيها أو اتصلوا بها ، ومنهم كثير من الزعماء اللاحقين ؛ ويقرن المؤلف ذلك بتفصيل أعماله وحياته وصلاته مع الخديو وغيره حتى عوده إلى الوطن من النفى فى سنة ١٩٢٣

ونحن نهنئ الشيخ الوقور أحمد شفيق باشا بتوفيقه فى إتمام ذلك العمل الجليل الذى استغرق أعواماً كثيرة من حياته واقتضى منه جهوداً عظيمة تستحق تقدير مواطنيه وتقدير التاريخ ؛ أمد الله فى حياته الحافلة النافعة

الآداب الفرنسية وجائزة نوبل

تحدثت الصحف الفرنسية لمناسبة فوز الكاتب الفرنسى روجيه مارتان دوجار بجائزة نوبل للآداب عن الكتاب الفرنسيين الذين ظفروا قبله بهذا الشرف ، فذكرت أنهم قلائل جداً بالنسبة إلى من ظفروا بجوائز نوبل من الأمم الأخرى ، وهم لا يتجاوزون خمسة : أولهم سولى برودوم ، وقد حصل عليها فى سنة ١٩٠١ ؛ والثانى الشاعر البروفنسى مسترال ، وقد حصل عليها فى سنة ١٩٠٤ والثالث رومان رولان ، وقد حصل عليها سنة ١٩١٦ ؛ والرابع أناتول فرانس ، وقد حصل عليها سنة ١٩٢١ ، والخامس الفيلسوف هنرى برجسون ، وقد حصل عليها سنة ١٩٢٨ ؛ ومنذ عشرة أعوام لم يظفر كاتب فرنسى بجائزة نوبل ، فى حين أن الآداب الانكليزية أو الألمانية أو الإيطالية لا يكاد يمضى عام أو اثنان حتى تظفر إحداها بهذا الشرف

ولكن الصحف الفرنسية ترى من جهة أخرى أن الآداب الفرنسية كانت موفقة من الناحية المعنوية أعظم توفيق ، لأن أولئك الذين حصلوا على جوائز نوبل منذ قيامها إلى الآن هم خيرة ممثليها فى مراحلها المختلفة ؛ وقد كان مارتان دروجار حقاً ممثلها من نوع يستحق التقدير العالمى

والمعروف أن لجنة استوكهلم قد منحته جائزة نوبل من أجل قصته الشهيرة « تيبول » Thibault التى تقف حوادثها عند صيف سنة ١٩١٤ ، والتى استؤنفت بعد ذلك خلال الحرب الكبرى ؛ وهى القصة التى ظفر من أجلها أيضاً بجائزة مدينة باريس الكبرى التى رتبتها بلدية باريس لأحسن مؤلف قصصى أو تاريخى ، ثم توجتها عقب ذلك جائزة نوبل . وقد أحدث حصوله على جائزة استوكهلم دهشة فى بعض دوائر الأدب الفرنسى إذ كانت تتوقع أن يكون الفائز بها هو الشاعر الكبير بول ڤاليرى ، ولكنها اغتبطت على أية حال لأن الفائز بها فرنسى

جائزة نوبل للسلام

وعلى ذكر جوائز نوبل أيضاً نقول إن الذى فاز بجائزة نوبل للسلام هو السياسى الانكليزى الكبير اللورد روبرت سسل ، وذلك من أجل جهوده فى سبيل قضية السلم العالمى . وقد درس اللورد سسل فى جامعتى إيتون واكسفورد ، وخاض حياة سياسية باهرة ، وانتخب عضواً فى مجلس العموم منذ سنة ١٩٠٤ وتقلب فى المناصب الكبيرة حتى غدا فى سنة ١٩١٨ وزيراً للخارجية . وقد لعب دوراً كبيراً فى مؤتمر الصلح وإعداد دستور عصبة الأمم ؛ ومثل انكلترا فى جلساتها مراراً ثم ناب عن انكلترا فى لجنة السلاح ، وكان له فى أعمالها مواقف نبيلة دلت على تحمسه فى مناصرة قضية السلم . واللورد سسل من أعظم أنصار عصبة الأمم ومبدأ السلامة الاجماعية . وقد استقال من جميع المناصب الحكومية ليتفرغ لخدمة قضية السلم ، وله فى ذلك مواقف وخطب رنانة ؛ وله كتاب قيم عنوانه « سبيل السلام » The Way of Peace ضمنه خطبه وأحاديثه السلمية ، وكلها تدل على تمكنه من موضوعه . وهو فى الوقت نفسه من أشد خصوم النظم الفاشستية ، وله فى شأنها حملات خطابية وكتابية شديدة ، وهو اليوم فى الثالثة والسبعين من عمره ، ولكنه لا يزال يعمل لخدمة السلام بهمة الشباب

مواطن الجواد قبل التاريخ

عثر المنقبون فى سفالوف فى جنوب السويد على عظام قديمة ظهر من فحصها أنها عظام الجواد الوحشى ، وأنها ترجع إلى نحو عشرين ألف سنة . ويرى العلماء الرسميون الذين فحصوها أنها بلا ريب من بقايا الجواد القديم المنقرض ، وقد كانت هذه المسألة مثار خلاف بين العلماء ، فجاء هذا الاكتشاف مؤيداً لأقوال القائلين بأن الجواد كان ضمن الحيوانات التى تعيش فى هذه المناطق منذ عصر ما قبل التاريخ

بريطانيا العظمى وفلسطين

صدر فى انجلترا منذ أسابيع هذا الكتاب عن فلسطين الشقيقة للكاتب الانجليزى هربرت سيد بوتهام . وقد تصفحناه فوجدناه كتاباً مُغرضاً أغلب الظن أنه طبع بأموال يهودية ليبشر بالدعاوة لليهود فى سائر أنحاء العالم على العموم وفى انجلترا وبين أنصار حزب المحافظين على الخصوص ... فلقد سرد تاريخاً مملا مشوهاً لفلسطين منذ أن فتحها محمد على الكبير إلى اليوم واعتبر هذا الفتح مبدأ لحركة الدعاوة لانشاء الوطن القومى لليهود الذى لم يتحقق إلا فى السنوات الأخيرة ، وقد اعتبر اليهود سفراء المدنية الغربية إلى الشرق ، وتبجح فنعى على العرب قلة عرفانهم بهذا الجميل الذى أسدته إليهم بريطانيا إذ سخرت لهم الذهب اليهودى والذكاء اليهودى لينهضا بهم ، كأن العرب كانوا قد نسوا مدنيتهم ومجدهم وافتقروا إلى السحت لاحياء ماضيهم الغابر . ومما يثير عجب القارىء ويبعث ضحكه أن ينعى المؤلف على بريطانيا استخذاءها تلقاء العرب « الذين يعتبرون التأدب البريطانى جبناً والرحمة الانجليزية ضعفاً فَتَرِد وفودهم إلى لندن ليملوا شروطهم كأنهم انتصروا على بريطانيا فى معارك حربية ... » ولسنا نعرف أن بريطانيا قد استخذت يوماً فى فلسطين فيما يتعلق بالجانب العربى ، اللهم إلا أن يعتبر المؤلف ضرب السكان بالنار ونسف المدن بالديناميت استخذاء . ولسنا نعرف أيضاً ماذا كان من نكران العرب لجميل بريطانيا ؟ أفمن هذا النكران وقوف العرب صفاً بجانب الانجليز في الحرب الكبرى ضد إخوانهم المسلمين ؟ أم من هذا النكران تمسكهم ببلادهم وافتداؤهم لها بدمائهم ؟ ما كان أجمل أن يذكر المؤلف كيف سند العرب بريطانيا فى الشرق ، ولو لم يفعلوا لتغير مجرى التاريخ ، وتغير تبعاً لذلك وجه الأرض ...

وبعد ، فليقرأ الفلسطينيون هذا الكتاب ولينظروا فى وقاحاته ، فقد عرض بالسوء لرجالاتهم ، وجرح بالباطل زعماءهم وهم برد مزاعمه أولى

طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧